المدخل إلى

سنن التاريخ

في القرآن الكريم

الشيخ محمد حسين الأنصاري

تقديم سماحة العلامة
الشيخ علي كوراني




المدخل إلى
سنن التاريخ
في القرآن الكريم

المدخل إلى

سنن التاريخ

في القرآن الكريم

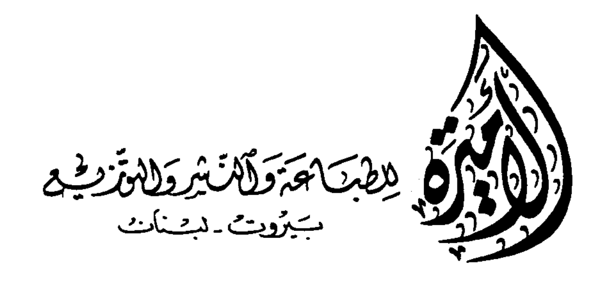
الشيخ محمد حسين الأنصاري

قدم له العلامة

الشيخ علي الكوراني العاملي

الطبعة الأولى

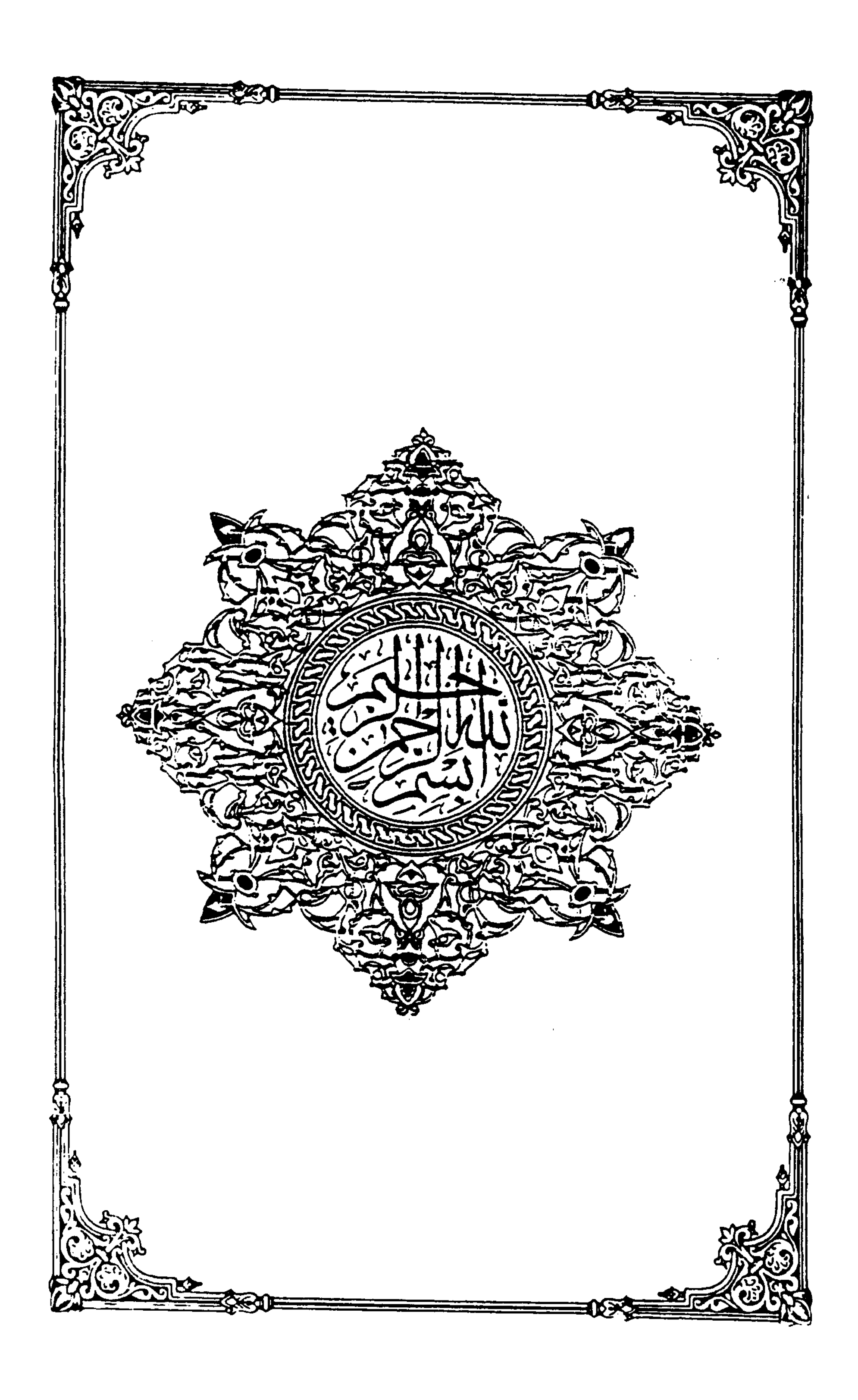
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م



خليوي: ٠٣/٩٤٦١٦١ - ٠٣/٦١٥٤٢٥ - تلفاكس: ٠١/٢٧٦٤٠٨

http://www.Dar-ALamira.com

email:info@dar-alamira.com


بسم الله الرحمن الرحيم



مؤلّفات المؤلّف

١ـ المدخل الى سنن التاريخ في القرآن الكريم.

٢ـ المعايير العلمية لنقد الحديث.

٣ـ ديوان شعر في الإمام الحسين عليه السلام.

٤ـ ثورة الإمام الحسين صلوات الله وسلامه عليه.

٥ـ ديوان شعر متنوّع.

٦ـ أسباب الانتكاسة البانية لثورة شعبان ١٤١١ هـ.

هذه مؤلفاته المخطوطة وله كتب في مواضيع متفرقة حول المفاهيم الإسلامية.

ومن آثاره المطبوعة:

١ـ جذوة مقتبسة من حياة آية الله السيد السبزواري قدس سره.

٢ـ لمسات الشيخ المفيد على سنن التاريخ.

٣ـ الإمامة والحكومة في الإسلام.

٤ـ مؤتمر الشيخ المفيد.

٥ـ العصمة: حقيقتها، أدلتها، نشرها المركز الإسلامي في مدينة قم قبل أعوام وهذه الطبعة الثانية تمتاز بزيادات وتعديلات كثيرة. وله إجازات من:

آية الله السيد كاظم المرعشي

آية الله السيد محمد مفتي الشيعة

آية الله الشيخ بشير النجفي

وله إجازة الرواية من:

السيد السبزواري

السيد عباس الكاشاني

الشيخ أحمد سبط الشيخ الأنصاري

السيد ابراهيم الزنجاني.

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

لم تمنعه معاناة الهجرة أن يعيش مع القرآن والعترة، فـقد جـبله الله عـلى حبهما، فكانا هداه في الحياة وعدته للممات، وعونه على الأثقال، وزاده في الحل والترحال.

كان في النجف طالباً وأستاذاً ينعم في ظل أمير المؤمنين عليه السلام، فجعله نمرود العراق رقماً في أربعة ملايين، شردهم الى جهات الدنيا الأربع، فكان هو والألوف من نصيب أستراليا.

وحمد الله تعالى على أنه وجد في (سيدني) بعض الكتب والأوراق فعاش بينها، وبعض المؤمنين فعاش معهم، وواصل أهدافه العلمية والعملية التي عاش لها.

أرسل لي هذا البحث الذي بدأه في قم وأكمله هناك، فوجدته هو قبل بحثه، فسجلت له تقديري، وحبي للنجف الأشرف من خلاله.

* * *

وهذا البحث مدخلٌ الى سنن التاريخ في القرآن، وطبيعي أن تكون للتاريخ سنن وقواعد، ما دام هذا الكون متقناً بكله طبق أنظمة وقواعد، وتاريخ الإنسان جزءٌ منه، أو أهم أجزائه.. وما دام القرآن فيه تبيان كل شيء، وتـاريخ الإنسـان ومستقبله أهم أشيائه.

فالذي نحتاجه هو محاولة معرفة هذه القوانين والسنن، التي قال الله تعالى عن بعضها: ﴿سُنّة الله الّتي قد خَلت مِن قبلُ وَلن تجِد لِسنّةِ اللهِ تَبدِيلاً﴾.

ومحاولة الأخ الفاضل الأنصاري تضاف الى محاولة سيدنا الأستاذ الشهيد الصدر ﵀ في استكشاف سنن التاريخ من القرآن، ومعرفة عناصرها الأساسية وارتباطاتها وعمل (ماكنتها).

وقد نص القرآن على وجودها في عدة مجالات، منها:

سنته تعالى في إهلاك الأمم التي تكذب الرسل، حيث قال سبحانه لنبيه ﷺ عن أهل مكة:

﴿وَإن كادُوا ليستفزُّونَكَ مِنَ الأرضِ ليُخرجُوكَ مِنها وَإذاً لايلبَثُون خِلافَكَ إلاّ قليلاً. سُنّة مَنْ قَد أرْسَلنا قَبلكَ مِن رُسُلِنا ولا تَجِدُ لِسُنَّتِنا تَحوِيلاً﴾(١).

وقال له عن المنافقين:

﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَراً مَقْدُوراً * الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيباً﴾(٢).

﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾(٣).

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى

---

(١) الاسراء: ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) الأحزاب: ٣٨ ـ ٣٩.

(٣) الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢.

الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً * اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّءِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾[١].

وقال له عن القرون المكذبة للرسل:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾[٢]،

الى آخر الآيات الكريمة في هذا الموضوع العلمي العميق.

* * *

لقد شكرت الله تعالى أن أخانا العلامة الأنصاري، ما زال يكتب رغم قلة المصادر، وكثرة المشاغل، فاسأل الله تعالى أن ينفع بقلمه، وأن يوفّقه لمواصلة تدريسه وتأليفه، في مشهد أمير المؤمنين وسيد الوصيين صلوات الله عليه، وأن يعمر به وبأمثاله حوزة النجف الأشرف فهو سبحانه ولي التوفيق.

حرّره

علي الكوراني العاملي

في السادس من محرم الحرام ١٤٢٥

---

(١) فاطر: ٤٢ ـ ٤٣.

(٢) غافر: ٨٢.





مقدمة المؤلف



مقدمة المؤلف:

كنت قد كتبت هذه الأبحاث في مطلع الثمانينات الميلادية بعد حضوري لدروس الشهيد السعيد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر «رحمه الله تعالى» في مسجد الطوسي «قدّس سرّه» في النجف الأشرف تعليقاً وتحقيقاً وابتكاراً.

وقد مرّ على كتابتها الأعوام تلو الأعوام ولم تنشر إلا أن الفرصة قد أتت عند مهرجان الشيخ المفيد في بداية التسعينات المنعقد في مدينة قم المقدسة فكتبت حينها ما يتعلق بهذا الشيخ العظيم مما كتبته، وقد نُشِر فيما نُشر من أبحاث في نهاية المهرجان العلمي هذا، وكنت قد كتبت ملخصاً لِما اختصرت فيما يلي نصه:

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاةُ والسلام على أشرف خلقه محمّدٍ وآله الطاهرين.

ركيزة بحثنا تعتمدُ اعتماداً كليّاً على تأثير الانسان في تغيير مجرى حياته؛ بل تأثيره في تغيير مجرى التاريخ البشري كلّه.

وهذا البحث وأعني به ـ السنن التاريخية ـ بحث جدير تعرّض له مفكّرونا أمثال الشهيدين السعيدين الشيخ المطهري ﷺ والسيد الصدر ﷺ، كما تعرّض له آخرون من مفكري المسلمين من أمثال الدكتور عماد الدين خليل.

وقد اجبتُ على عجالةٍ من امري: أنّ هذه السنن المبثوثة في كتاب الله

الناطق التي تبيّن تأثير الانسان في كتاب الله الكوني قد نوّه إليها ائمة الهدى من قبل بما أنهم عِدلُ القرآن العظيم وأحد الثقلين أشار إليها علماؤنا الاعلام اشاراتٍ واضحةٍ أو خفية تظهر للمتتبّع والمستقصي؛ حتّى انّ بعضها قد جاء الينا منذ أوائل بلورةِ الفكر الاسلامي وفي بدايات الغيبة الكبرى....

وَمِنْ هؤلاء الأعلام كان الشيخ المفيد ﷺ ....

واعترف باني قد اغتنمت الذكرى المباركة هذه لبيان وتوضيح تلك السنن بصورةٍ عامّة وسريعة واستطردت بها استطراداً فكريّاً مبسوطاً، ولم يكن البحث مناقشة لأفكار ذلك الشيخ العظيم ﷺ في ذلك بل كان لبيان انَّ هذا العلم الكريم قد التفت اليها فكان بهذا سبّقاً...

إلاّ أنّه مِن خلال حديثنا ربما طفحتِ الاشارة الى رأيه الشريف ﷺ في:

أ ـ جانب من العدل الالهي.

ب ـ الفطرة.

جـ ـ جانب من اسلوبه ﷺ في تفسير القرآن.

د ـ جانب من رأيه في الجبر والتفويض.

ونحن نحاول في هذه الأوراق على عجالةٍ من الأمر لضيق الوقت وازدحام الامور ان نسلّط الضوء على بعض الجوانب التي تهمّنا هذا اليوم بالخصوص في بناء شخصيتنا وأمّتنا من خلال ما أشار اليه ﷺ في طيّ كلماته المستفادة من كتاب الله تعالى الكريم وأحاديث أهل بيت العصمة ﷺ مستأنسين بها، سابحين في اشاراته باسلوبٍ قد يبتعد من المباشرة بالكلام، والطريقة الاعتيادية في الطرح ـ كما ذكرنا ذلك في مقدِّمة البحث.

ويمكن اجمال البحث في ما يلي:

(١) المدخل

(٢) المعالجات القرآنية للمفردات المكونة للتاريخ المنحصرة في:

أ ـ اسباب الرقي.

ب ـ اسباب الانحطاط.

ويرتكزان على:

عناصر التاريخ وهي:

١ـ المَثَل الذي تتبنّاهُ المسيرة البشرية.

٢ـ الوعي الفردي والجماعي.

٣ـ الواقع الطبيعي.

(٣) العوامل التي تتدخّل في تغيير التاريخ:

١ـ الانسان نفسه.

وفيه تعرّضٌ لِخلقِ الانسان، وبداية الصراع بين الخير والشر، والمرور في بيان الفطرة.

٢ـ الخير المتمثل بالهداية الخارجية.

٣ـ الشر المتمثّل بإبليس نفسه.

٤ـ جنود إبليس.

٥ـ الميدان الذي يدور فيه الصراع.

ثمَّ تعرّضنا للحيثيات التي سلّط القرآنُ الكريمُ الضوءَ من خلالها على سنن التاريخ وفيها ذكرنا التأثير الخاص والعام على الفرد والمجتمع عقوبةً وثواباً على بعض أعمال الفرد والمجتمع.

وفيها ببيان العقوبة الوصية المرتبطة بالسنن والحديث حول الثواب

الوضعي المرتبط بالسنن كُلاً بقسمه الخاصّ به.

وقد ختمنا البحث ككلّ بردّ الشيخ المفيد ﷺ على المجبّرةِ في تفسيرهم لبعض آيات الله التي فيها تعرّضٌ لأساس حديثنا، كما بدأنا البحث بذكر مقطعٍ من كلامه ﷺ قد اخترناهُ من كتابه ـ أوائل المقالات في المذاهب المختارات.

وبهذا نختم ما أحببنا ذكرهُ في هذا المختصر لبيانِ ما تعرَّضنا لَهُ في هذا البحث. وَلهُ الحمدُ وله المنّة.

قم المقدّسة ـ محمد حسين الأنصاري

وبعد هذه السنين سنحت الفرصة ولله الحمد وأمَّنته بتبرّع أحد المؤمنين لطبع هذا الكتاب جزاهُ الله تعالى عنّا وعن جميع من سيستفيد من هـذهِ الأوراق خير جزاء المحسنين انّهُ وليُّ التوفيق ومنه التسديد.

محمد حسين الأنصاري

سدني ـ استراليا

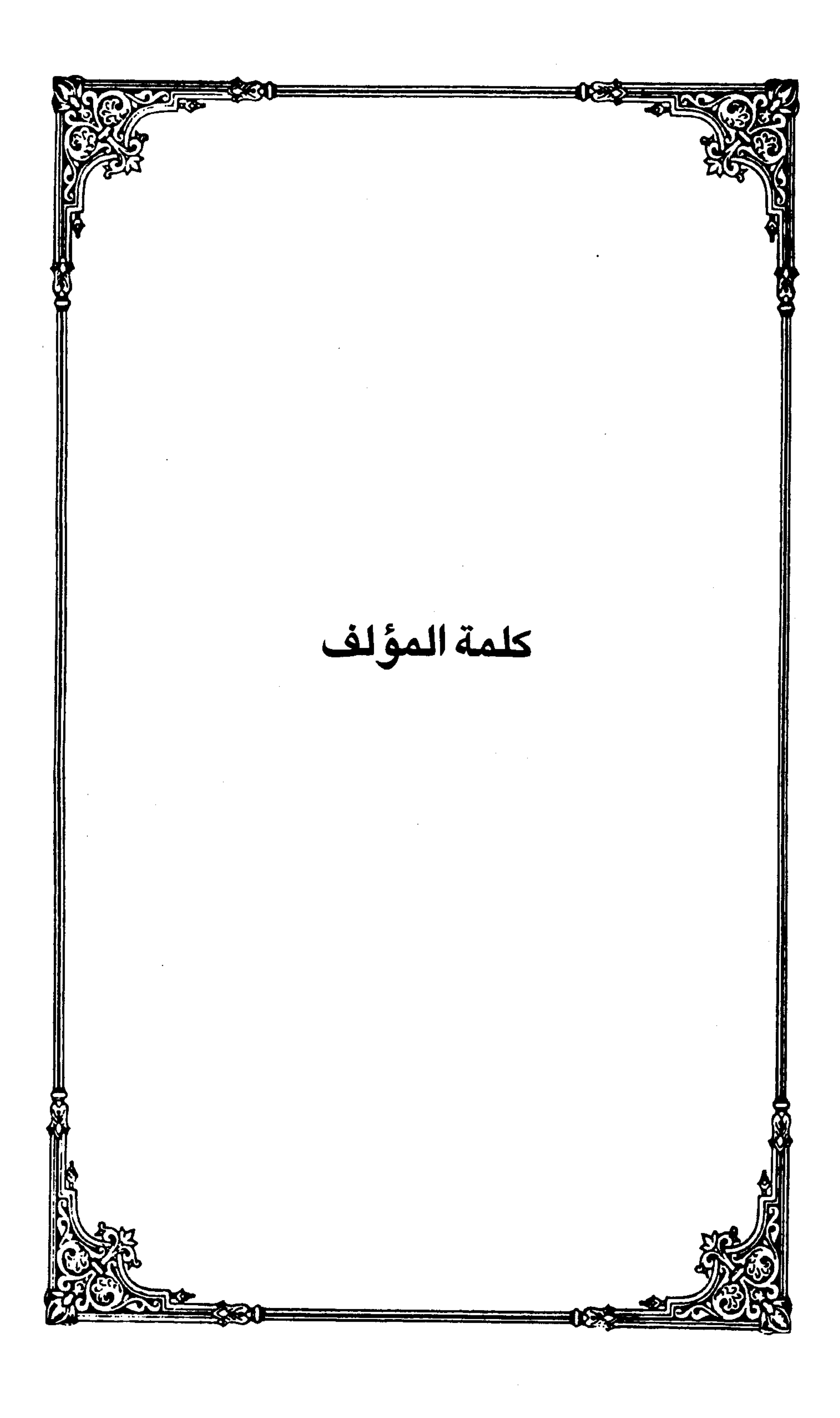
١٥ / شعبان المبارك / ١٤٢٤هـ

الإهداء:

الى كلّ الذين نذروا أنفسهم في سبيل الله
وإلى من علمني حرفاً في هذا الدرب
والى من زرعني قبل ذلك في أرض طيّبة
فإلى الزارع والساقي والارض
أهدي هذا النتاج

التوقيع
محمد حسين الشيخ عبدالغفار الأنصاري





كلمة المؤلف



أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلّف

(الحمد لله الذي لَبس العِزّ والكبرياء، واختارهما لِنفسه دون خلقِه، وجَعَلَهما حِماً وحَرَماً على غيره، واصطفاهما لِجَلاله، وجعل اللعنة على مَن نازعهُ فيهما مِن عباده، ثمّ اختَبَرَ ملائكتهُ المقربين لِيَميزَ المتواضعين منهم من المستكبرين...).

والصلاة والسلام على أشرف خلقه وسادة بريته محمّد وآله الطيّبين الطاهرين وعلى أصحابه الغرِّ المُحجّلين ومن اتبعهم بإحسانٍ الى يوم الدين.

مقدّمة:

ما هو الأساس في دراستنا هذه؟

الأساس في كلّ دراسة يعتمد اعتماداً كليّاً على مصدر وقانون ثابت يُوثّق به.

وهي إما أن تكون إلهيّة أو وضعيّة؛ ولكل منهما مميزات.

يمكن أن نحصرها فيما يلي لِنَر الفرق الشاسع بينهما.

مميزات القوانين الوضعية:

يمكن أن نلاحظها من جهتين جهة الواضع ومميزاته الذاتية، ومن جهة أخرى جهة الموضوع والموضوع له.

أولاً: جهة الواضع والدارس:

أ): يمكن أن تكون الدراسة من بناة أفكاره وآرائه، وهذا لاعيب فيه لو كان قد أتعب نفسه وجاهد دهره ليثقفها وليجعلها مخطومة على العلم والمعرفة وموقوفة.

ولكن مهما وصل الإنسان من درجة علمية فإن فوق كل ذي علم عليم وهو مهما وصل وارتقى فإنه لا زال إنساناً وهو على ما عليه قابلة آراؤه للمناقشة والمحاورة والنجاح والفشل.

وخاصة عندما تكون دراسته وبحثه حول المجال الإنساني والعقائدي والنهوض والإرتقاء أو أمر من هذا القبيل، إذ أن التجربة وهي أعلى ما يمكن أن يكون مصدراً صحيحاً غير قابل للمناقشة هذه محصورة في الأمور التجريبية ولايمكن أن تطال هذه الأبحاث بها بأي حال من الأحوال.

ب): إن نفس الدارس يتغير بزيادة دراسته وإطلاعه لِذا نرى أن أفكار الإنسان نفسه كثيراً ما تختلف باختلاف سني عمره كما هو واضح وجلي.

ج): فضلاً عن ان الجهة الاخرى إن الناس أنفسهم الذين يدرسون هذه الظواهر يتغيرون بانقلاب الأمور حتى المدروسة نفسها الذي هو من جملتها فكيف نعتمد على شيء متغيّر؟

د): إن الدراسة مهما بلغت من الكمال الموضوعي لاتعكس الا وجهة نظر

صاحبها. وبما أن الإنسان ناقص لايمكن له أن يدرك الكمال المطلق لذا سوف تخفى على الدارس أمور، وتطفح أمور أخر من جهة أخرى لم يكن له التأثير الذيى قد أوهم الدارس أهميته، أو كانت له أهمية لم تكن بذلك الحجم الذي تصوره الدارس.

هذا من جهة الدارس نفسه.

ثانياً: جهة المدروس:

أ): فهو قابل للتغير كما ظهر ممّا مر.

ب): مما يبعد احتمال الإعتماد عليها إن ما هو أكثر تناولاً من التجربة لايمكن أن تكون ذات ثوابت تامة، فهذه بين أيدينا الأمور الفيزياوية وحتى الكيمياوية كم قد تغيّرت دراسة قوانينها لتغير الثوابت.... كما هو معلوم لدى المطلع على هذين العلمين، فكيف بالأمور الأبعد عن التجربة والتي تحتاج الى سنين طوال لمعرفة نفعها أو ضرها.

ج): الذي يقع عليه الدرس ليس فيه تحتية ثابتة واضحة وجلية يمكن أن يعتمد عليها كي تكون ميزاناً ومنطلقاً. إن ما يدرسه هو بنفسه قد يتغير، فكيف تتم الإحاطة بكل ذلك؟

د): كما ان الحالة التي قد درست ربما تكون حالة نادرة أو أنها لاتتكرر بمر الأعوام والسنين إلا مرة واحدة وحتى لو لم تكن كذلك فلربما طافت هنا واستقرت في القعر غداً لتغير الأسباب والعلل وتشعبها، فيصبح ما توهمه حقيقة سراباً سرباً.

فانّى لنا من معرفة كُل ذلك؟!

ولو توهمنا القدرة فكيف بالغد البعيد ... والأبعد؟!

مع ادراكنا وجزمنا بأنّ الإنسان واحد، والطبيعة البشرية واحدة.

واذ امرُّ بهذا البحث الدقيق مروراً سريعاً بلا تعرض لأي مذهب ورأي ونقده، لم يكن ذلك ضناً، ولكن أغفلته خوفاً من الإطالة من جانب، وحذراً من الخروج عن موضوع دراستنا الذي لم ندخل فيه بعد من جانب آخر.

والحقيقة بحمد الله ظاهرة يعيشها الفرد بنفسه، ويتحسسها بحواسه كما يتحسس يده التي يمسك بها الكتاب الذي يقرأه لو التفت اليها.

مع هذا كلّه...

يبقى الإنسان متحيراً ومترددأً...

هذا التحير والتردد عند امثالنا من المسلمين مردود في نحره محكوم عليه بالموت عند ولادتِه وذلك لوجود الاساس القويم الذي يمكن أن نعتمد عليه اعتماداً كلياً دون زيغ أو ميل ...

روى الحارث الهمداني عن علي عليه السلام في حديث له أنه قال:

«كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم،

هو الفصل ليس بالهزل،

هو الذي ما تركه من جبار الاّ قصمه الله،

ومن ابتغى الهدى في غيره اضله الله،

فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لاتزيغ به الاهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولايشبع منه العلماء، ولايَخلقُ عن كثرة الرد، ولاتنقضي عجائبه،

وهو الذي لم ينته الجن اذ سمعته أن قالوا ﴿انا سمعنا قرآناً عجباً﴾[١].

---

(١) آية ٢ سورة الجن ٧٢.

هو الذي من قال به صدق

ومن حكم به عدل

ومن عمل به أجر

ومن دعا اليه هدي الى صراط مستقيم...»[١]

«واعلموا أن هذا القرآن هو الناصح الذي لايغشّ، والهادي الذي لايُضلّ والمحدث الذي لايكذِب،

وما جالس هذا القرآن أحد إلاّ قام عنه بزيادة أو نقصان، زيادة في هدىً، أو نقصان من عمىً.

واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقةٍ،

ولا لأحدٍ قبل القرآن من غنىً...»[٢]

فكيف لا أجعله أساساً

وقد (رأيتُ صغارة الإنسان في تفسيره وتفكيره أمام عظمة الله في قرانه.

رأيت نقص المخلوق في تناهيه وخضوعه أمام كمال الخالق في وجـوبه وكبريائه.

رأيت القرآن يترفع ويرتفع، ورأيت هذه الكتب تصغر وتتصاغر.

رأيت الإنسان يجهد نفسه ليكشف ناحيةً خاصةً أو نـاحيتين فـيحرر مـا اكتشفه في كتاب، ثم يسمي ذلك الكتاب تفسيراً يجلو غوامض القرآن، ويكشف اسراره، وكيف يصح في العقول أن يحيط الناقص بالكامل؟!)

(على انّ هؤلاء العلماء مشكورون في سعيهم، مبرورون في جهادهم، فإن

---

(١) سنن الدارمي.

(٢) من خطبة لأمير المؤمنين عليه السلام، نهج البلاغة، صفحة ٣٤٧، شرح الشيخ محمد عبده.

كتاب الله ألقى على نفوسهم شعاعاً من نـوره، ووضـحاً مـن هـداه، وليس مـن الانصاف ان نكلّف أحداً وإن بلغ ما بلغ من العلم والتبحر أن يحيط بمعاني كتاب الله الأعظم...)[١].

كما ذكر ما في نفسي ونفوسٍ أخر استاذ الاساتذة السيد أبو القاسم الخوئي دام بيانه وخيره في بيانه[٢].

ومع هذا كله وغيره رأيت نفسي قد ادلت دلوها فاشركتها ادفع بها دفعاً لعل الميسور يغنى بعض الشيء، ولم يكن الأمر سهلاً، مع أني لم أبغ تفسيراً لكتاب الله ولا شرحاً، فهذا لايقوم به العالم المتبحر فضلاً عن انسان مثلي...

ولكن أردت أن ألفت النظر الى ما ذكره القرآن الكريم من سنن الله تعالى التي بثها في كتابه المخلوق في كتابه المنطوق واستخراجها ليكون عظةً لنا، وتثبيتاً من أنفسنا بمعونة الله تعالى، وتنبيها لمن أراد الدنيا وزخرفها بأن ذلك يحصل مع السلوك الصحيح وهو الأثبت والأنفع والأدوم للـخلاص مـن العـذابـين الزائـل والدائم، وان كان بعضهم سيلومني على ذلك، فالقرآن هو الذي يجيبه صراحةً:

﴿وَإذ قالت امّةٌ منهم لِم تَعظون قوماً اللهُ مُهلكهم أو مُعذّبهم عَذاباً شديداً... قالوا مَعذرةً الى ربّكم ... ولعلهم يَتّقون﴾[٣].

---

(١) البيان في تفسير القرآن ـ السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي ـ صفحة ١٩.

(٢) هذه الدراسة قد كتبت قبل سنين عدة، في حياة السيد ﷺ.

(٣) آية ١٦٥ سورة الأعراف: ٧.

وليلاحظ اني قد جعلت البسملة في كل سورة آية مستقلة واعطيتها العدد ١ كما هو ديـدن أهل بيت العصمة عليهم السلام، ولذا لو أريد استخراج الآية من المصاحف المطبوعة فالعدد الذي يكون قبل العدد المذكور هو عددها ما عدا سورة براءة إذ لا بسملة فيها.

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبلِكُم سُنَنٌ فسيروا في الأرض)

١٣٧ آل عمران ٣

لماذا سننُ التاريخ؟!!

نقول: أولاً: إننا نؤمن بسننٍ في الكون مبثوثة كما كان للطبيعة سننها الخاصة بها. ولا ندعي بأنّ الله سبحانه أنشأها وجعلها في الكون ثم جلس يتفرج على ما يحدث، كما لو كان ثمة إنسان قد جلس مراقباً للغروب والشروق، أو طبيب معالج يراقب مريضاً ماراً بمرض ذي إعراض معينة ومتدرجه، يعرفها لاتخفى عليه وهو يتقهقر في المرض، أو إعراض يعرفها وهو يتماثل للشفاء، فنقع بما وقع فيه اليهود من قبل وغلت أيديهم ولعنوا بما قالوا:

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غُلّت أيديهم ولُعِنوا بما قالوا...﴾[1].

فقد روى ﷺ في كتابه التوحيد باسناده عن أبي عبدالله عليه السلام انه قال في قول الله عزّوجلّ: ﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة...﴾ لم يعنوا أنه هكذا لكنّهم قالوا: قد فرغ من الامر، فلايزيد ولاينقص، فقال الله جلّ جلاله تكذيباً لقولهم ﴿غلّت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾ ألم تسمع الله

---

(١) آية ٦٥ سورة المائدة ٥.

عزّوجلّ يقول ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبّت وعنده أم الكتاب[١]﴾[٢].

وله التصرف المطلق، وناتج الحساب، وتقلب الامة والفرد سواء في هذا ام في ذاك، ولكن نستعرضها كتوجيه للانسان، بما هو انسان، وما عليه هو ان يفعله بما اودعه الله عليه من أسس ذي نتائج مبينة، قد أودعها كتابيه[٣] ولا نسأل الله سبحانه عما يفعله هو، لأنه فعله وهو بعمله وحكمته ادرى به منا، فيتوجه الإنسان بما هو جزء من كل من الناحيتين التكميلية والعبودية للمطلق، لكي يسعد، ويعيش حراً ذا إرادة بناءة، وحياةٍ مستقرة من زاوية، ومتحركة للاعلى من ناحية ثانية، لكي يمثل الإستخلاف المفروض منه على هذه الارض. ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الارض خليفة...﴾[٤] ويمثل الكرامة التي منحها الله له: ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر...﴾[٥] ويبقى على أحسن تقويم كما قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم * ثم رددناه اسفل سافلين * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات...﴾[٦].

﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله...﴾[٧].

من هنا جاء البحث.

---

(١) آية ٤٠ سورة الرعد ١٢.

(٢) التوحيد ـ الشيخ الصدوق ١.

(٣) ونقصد بهما القرآن الكريم والعوالم الاخرى من خلقه...

(٤) آية ٢١ سورة البقرة ٢.

(٥) آية ٧١ سورة الاسراء ١٧.

(٦) آية ٥ و٦ و٧ سورة التين ٩٥.

(٧) آية ٤٨ سورة ابراهيم ١٤.

(سنّة الله في الّذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلاً)

آية سورة

جاءت مادة (سنة) في القرآن الكريم في مواضع عشرة وأزدادت ثلاثة كما هي[١] وبالسنن في موردين اثنين[٢]، وفي مورد واحد اضافها الجليل عزّوجلّ لضمير الجمع عظمةً[٣].

وقد جاءت بمواضع عشرة بهذا المعنى الذي مدار الحديث حوله[٤]، وفي ثلاثة منها المعنى المعين ليس واضحاً[٥]، واما في المواضع الثلاثة الباقية[٦] فقد كان خافياً إن لم يكن فيها غيره.

وربما كانت الآية في مواضع أُخرى سنّةً إلا أنه سبحانه وتعالى لم يصرح بها تصريحاً بل لمح تلميحاً، واشار اشارةً فتركها للتدبر والتمعن.

ونحن بحمد الله تعالى وتوفيقه حـاولنا وان لم تكـن المـحاولة سـهلة ان

---

(١) الآيات ٣٩ سورة الانفال ١٤ الحجر، ٧٨ الاسراء. ٥٦ الكهف. ٣٩ و٦٣ الاحـزاب وردت فيها مرتين. ٤٤ فاطر وردت فيها ثلاث مرات. ٨٦ غافر. ٤ و ٢٤ الفتح.

(٢) آية ١٣٨ آل عمران و٢٧ النساء.

(٣) آية ٧٨ الاسراء.

(٤) وهي آيات سورة الانفال، الاسراء، فاطر، الكهف، آل عمران والفتح.

(٥) وهي آيات سورة الحجر، والاحزاب آية ٦٣.

(٦) وهي آيات سورة الاحزاب ٣٩، وسورة غافر وسورة النساء.

نقتطف ما نستطيع اقتطافه منها مركزين على هذا فقط، ومقتصرين على الآيات الأقرب ظهوراً لدراستنا، وإلاّ فهناك أكثر من ذلك، وعسى الله أن يوفقنا أو يوفق غيرنا لاستخراجها وعرضها بما ينفعنا جميعاً

ولذا عندما أتعرض للآية المباركة في هذه الأوراق لا أتعرض لتفسيرها من جميع وجوهها وبطونها، ـ فانّى لي ذلك؟! ـ بل اأخذ الضوء منها مُسلّطاً على تلك السنة التي فيها مكتفياً بهذا عما عداه من اناقةٍ وعمق.

ولو صح تسمية مثل هذه الكتابة تفسيراً فهي من التفسير الموضوعي للقرآن الكريم كما لا يخفى.

ومنه نستمد العون والثبات.

هَل للتاريخ سُنَّةٌ ثابتة:!!
ما هو التصريح القرآني بذاك؟!

نبدأ بلا مقدمات فنقول: إن أبسط ما في التاريخ وما في الحياة سيطرة القوي على الضعيف، وبهذا يكون الثاني تابعاً للأوّل سواءً كان كلاهما أو أحدهما جماعة أم أوسع من ذلك دائرةً أو أضيق، كأن يكون فرداً أو عشيرة وحتى أمة... فيتحكم بمصير من يتحكم به، على اختلاف شديد وبونٍ شاسع في كمية افراد المستغل ـ على صيغة اسم المفعول ـ ونوعيته وجنسه.

وهذا الذي أشرنا إليه ليس سنةً ثابتةً نريد بيانها، ولابدَّ من السير عليها، والا لتحطم المجتمع وهوى، بل الأمر بالعكس تماماً، إذ نتيجة ذلك تحطم المجتمع ولو بعد حين إن كان القويُّ يتّبع الهوى والشهوات، وهذا هو بالذات إحدى السنن الحقيقية التي نريد بحثها هنا والتعرض اليها من خلال تعرض القرآن الكريم لها تصريحاً أو تلميحاً..

من هنا نريد أن نبين جوهر مسلكين، الأول منهما الذي يتعرض لوجود خطوط عامة مشتركة سار عليها الإنسان ويسير، ولو باتباع شهواته وغرائزه والإنسان هو الإنسان...

والمسلك الثاني هو الذي يبين نتائج هذا السير وثمراته ايجاباً أو سلباً.

وهو ما نريد أن نرسم خطوطه مستوضحين صورته مع المرور بتلك الأشياء

المشتركة والعلائق الرابطة التي حدثت في الامم على اختلاف أشكالها وأنواعها، وكشف حقيقتها، ومدى قوتها، واستيعابها لفكرة الخير، سواء للانسان أم للكائنات الآخر على اختلاف شكلها وبيئتها وزمانها...

ولكن مفاد بعض الآيات القرآنية التي لسانها **﴿تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم...﴾** **﴿لكل أمة أجل...﴾** ربما يفيد بأنَّ ما مرّ على تلك الامم لايمر علينا.

ولكن هذه النظرة البدوية بعيدة عن التأمل...

إذ إن ما يريد الإخبار به سبحانه في أمثال هذه الآيات المباركة هو أنّ عملكم مستقل كعملهم فما عملوه من عمل سواء كان زيناً أو شيناً قد أُوتي نتاجه، وقد أثّر أثرَه، وانتهى الامر، أمّا أنتم وعلاقتكم بالكون فهي علاقة مستأنفة جديدة لها تأثيرها المستقل كتلك.

فالعمل الذي تقدموه هو الذي يؤثر سلباً أو ايجاباً.

فلنعد النظر فيها...

﴿تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تُسئلون عما كانوا يعملون﴾.

نحن لانُسأل عن عملهم.

أي أن عملهم كان ماضياً ومؤثراً بالنسبة لهم اما نحن فعملنا هو الذي يؤثر وكسبنا خاصة كذلك...

ألا تراه في موضع آخر يقول عزّ ومن قائل:

﴿فهل ينظرون إلاّ سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلاً ولن تجد لسنة الله تحويلاً﴾.



المسلك الأول



الخطوط العامة المشتركة التي سار عليها الإنسان والتي لابدّ لها من السير عليها

ويمكن أن نحصرها مهما تعدّدت بمحورين متناقضين وبهدف مشترك وسنرى كيف يكون ذلك.

خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان من طين وروح...

﴿إذ قال ربّك للملائكة إنّي خالق بشراً من طين * فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾[١].

وترى من سياق الآية المباركة كرامة الذي خُلق...

خلقه وأضاف روحه اليه...

خلقه واختبر ملائكته به...

خلقه ليكون أباه مستخلفاً في الارض كما يظهر ذلك من آيات أُخر في مواطن أخر يذكر سبحانه هذا الأمر نفسه... ﴿وإذ قال ربّك للملائكة إنّي جاعل في الأرض خليفة﴾[٢].

خلقه وعلّمه ما لم يعلم ملائكته.

﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال انبؤني بأسماء

---

(١) الآية: ٧١ ـ ٧٢ سورة ص.

(٢) الآية: ٣٠ البقرة.

هؤلاء إن كُنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا الاّ ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم...﴾[١].

فكان له شرف التعلّم المباشر من الله سبحانه وتعليم الملائكة أنفسهم كما هو الظاهر.

وإذا ما رجعنا الى ما بدأنا به الحديث من خلق الإنسان الذي رسمته الآيات المباركة لشاهدنا أنه بهذا بدأت خيوط الفجر الأولى للإنسان...

ومنها يظهر مايلي:

١ـ إنّ هذا المخلوق له خصوصية خاصّة جدّاً، وأهميّة عظمى بحيث انّ الجليل جَلَّ وعلا نبّأ ملائكته بخلقه قبل أن يخلقه.

٢ـ خُلق للأرض.

٣ـ إنّه خليفة الله عليها، ليمثله في أرضه على أحد توجيهات الاستخلاف الوارد في الآيات المباركة.

٤ـ جاء بـ «إنّ» ليدلّ على توكيد الخبر، ثمّ جاء بالضمير الظاهر للمتكلّم ليدلّ على عظمة هذا الحدث بنسبته اليه سبحانه.

٥ـ إنّه مخلوق عظيم: وهذا يظهر من:

أوّلاً: أنّ أيّ شيء عظيم يراد بيان عظمته يضاف الى شيء عظيم، ومن هنا ورد يوم الله، وحساب الله، **﴿نار الله الموقدة﴾**[٢]، وقال تعالى: **﴿وإذ بوّأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهّر بيتي للطائفين﴾**[٣] لبيان عظمة

---

(١) الآية: ٣١ ـ ٣٣ سورة البقرة.

(٢) الآية: ٦ سورة الهمزة.

(٣) الآية: ٢٦ سورة الحج، كما وردت إضافة البيت الى الضمير العائد اليه سبحانه أيضاً في

المضاف كما هو بيّن.

وقال الله تعالى: ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾[١].

فأضاف الروح اليه ليدلّ على عظمة تلك الروح التي استقرّت في الجسد[٢]. وبها تحوّل من جماد لا حراك له الى ذلك المخلوق المكرّم...

«قال أبو جعفر ـ الشيخ الصدوق ﷺ في قوله تعالى: ﴿**ونفخت فيه من روحي**﴾ هي روح مخلوقة أضافها الى نفسه كما أضاف البيت الى نفسه وإن كان خلقاً له. قال الشيخ المفيد ﷺ: ليس وجه إضافة الروح الى نفسه والبيت اليه من حيث الخلق حسب، بل الوجه في ذلك التمييز لهما بالإعظام والإجلال، والإكرام والتبجيل من جهة التحقق بهما؛ ودلّ بذلك أنّهما يختصّان منه بكرامة وإجلال لم يجعله لغيرهما مِن الأرواح والبيوت فكان الغرض من ذلك دعاء الخلق الى اعتقادذلك فيهما والإعظام لهما به»[٣].

ثانياً: أتى بضمير الجمع المتصل ولم يأت بضمير المفرد لبيان مقدار ذلك التكريم الذي لايعلمه الاّ هو.

ثالثاً: علّمه ما لم يعلّم ملائكته.

ومع هذا التكريم والتفضيل... كان ثمّة مَن قد أنغصه ذلك لمّآ عجّ في داخله

= البقرة ـ ١٢٧ (وعهدنا الى ابراهيم واسماعيل أن طهّرا بيتي للطائفين).

(١) الآية: ٧٢ سورة ص.

(٢) في حديث عن أبي جعفر الباقر عليه السلام «إنّما أضافه الى نفسه ـ أي أضاف الروح ـ لأنّه اصطفاه على سائر الأرواح كما اصطفى بيتاً من البيوت فقال بيتي، وقال لرسول من الرسل خليلي، وأشباه ذلك، وكلّ ذلك مخلوق مصنوع محدث مربوب مدبّر» كتاب التوحيد ـ الشيخ الصدوق ﷺ / ص١٧١ / ط. دار المعرفة ـ بيروت.

(٣) شرح عقائد الصدوق / الشيخ المفيد ١ / ص١٧٩.

من حسد قد طوى نفسه عليه، بطغيان الكبر عليه... فأبى أن يسجد لمّا أمر الله سبحانه بالسجود.

فخرج مذموماً مدحوراً يجرّ أذيال الخيبة والفشل، إلاّ أنّ نفسه الشريرة لم تقف عند هذا الحدّ، بل أراد لهذا الذي فُضل عليه أن يسقط ليشفي غليله ويبرد حقده، فتحدّى طمعاً بالجانب الطيني لذلك المخلوق عسى أن ينكسه، ولو بعضه الى أسفل سافلين معه.

وقد ردّ ذلك السيد الطباطبائي ﷺ بميزانه الى تقدم الإنسان وتأخّر الشيطان ثمّ الطرد واللعن(١)؛ وبالتأمّل يظهر أنّه يرجع إلى:

أ ـ الكبر: **﴿قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين﴾**(٢) سواء قلنا انّه تكبّ على آدم مباشرةً، أم انّه استكبر على الله تعالى واستكباره على آدم كان بالتبع.

ب ـ الحسد: **﴿قال أرأيتك هذا الذي كرّمت عليّ لئن أخّرتن الى يوم القيامة لأحتنكنّ ذريّته إلاّ قليلاً﴾**(٣).

ج ـ الطرد واللعن: **﴿قال ربّ بما أغويتني لأُزَينَنّ لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين﴾**(٤).

وأراد الله سبحانه أن يثبت لملائكته عظمة من خلق، وأنّه أهل لكلّ ما خُلِقَ من أجله... فتُرك في الصراع لينتصر الحقّ بأهله، ولئلاّ يكون إكراه وإجبار.

---

(١) الميزان في تفسير القرآن / السيد الطباطبائي / ج١٤ / ص٢٢٠.

(٢) الآية: ١٢ سورة الأعراف.

(٣) الآية: ٦٢ سورة الاسراء.

(٤) الآية: ٣٩ سورة الحجر.

ولتتّصح الصورة أكثر كما اتضحت لهم عندما أجابهم عمّا سألوه عنه سلك سبحانه طريق الاختبار. ﴿وعلّم آدم الأسماء كلّها ثمّ عرضهم على الملائكة فقال أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين * قالوا سبحانك لا علم لنا إلاّ ما علّمتنا إنّك أنت العليم الحكيم * قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلمّا أنبأهم بأسمائهم....﴾[١].

وليتكفل القرآن الكريم بنفسه رسم الصورة كما جاءت في سورة الأعراف:

﴿ولقد خلقناكم ثمّ صورناكم ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلاّ ابليس لم يكن من الساجدين * قال ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين * قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها فاخرج إنك من الصاغرين * قال أنظرني الى يوم يُبعثون * قال إنّك من المنظرين * قال فبما أغويتني لأقعدنّ لهم صراطك المستقيم * ثمّ لآتينّهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين * قال اخرج منها مذءوماً مدحوراً لمن اتبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكم أجمعين﴾.

وهذه هي بداية خيط الصراع الحقيقي بين الخير والشر، بين الصعود والهبوط...

وقد تكفل الله تعالى الهداية بعد إصرار إبليس اللعين فقال تعالى: ﴿يابني آدم إمّا يأتينّكم رسل منكم يقصّون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾[٢].

فالإنسان نبّه على الخطر الجسيم الذي يحف به وبأنّه مقصود للإطاحة به الى درك الجحيم، وسوء المصير حسداً وبغضاً... والله سبحانه جعل له تلك الهداية

---

(١) الآية: ٣١ ـ ٣٣ سورة البقرة.

(٢) الآية: ٣٥ سورة الأعراف.

الخارجية التي هي الرسل والكتب، فضلاً عن الهداية الداخلية التي هي العقل الذي أساسه الفطرة... ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم..﴾[1]. «قال أبو جعفر ـ الشيخ الصدوق ؒ في الفطرة: إنّ الله تعالى فَطَرَ جميع الخلق على التوحيد.

وقال الشيخ المفيد ؒ: ذكر أبو جعفر ؒ الفطرة ولم يبيّن معناها وأورد الحديث على وجهه ولم يذكر فائدته...

والمعنى في قوله ؑ فطر الخلق أي ابتدأهم بالحدوث.

والفطرة هي الخلق.

قال الله تعالى: ﴿الحمد لله فاطر السمٰوات والأرض﴾[2].

يريد به خالق السماوات والأرض على الإبتداء والإستقلال.

وقال: ﴿فطرة الله التي فطر الناس جميعاً﴾[3]. يعني خلقته التي خلق الناس.

وهو معنى قول الصادق ؑ: «فطر الله الخلق على التوحيد».

أي خلقهم للتوحيد وعلى أن يوحّدوه.

وليس المراد به إنّه أراد منهم التوحيد.

ولو كان الأمر كذلك ما كان مخلوق إلاّ موحداً، وفي وجودنا من المخلوقين من لايوحّد الله، دليل على أنّه لم يخلق التوحيد في الخلق ليكتسبوا التوحيد.

وقد قال تعالى في شاهد ما ذكرناه: ﴿وما خلقت الجنّ والإنس إلاّ

---

(١) الآية: ٣٠ سورة الروم.

(٢) الآية ١ سورة الملائكة.

(٣) الآية: ٣٠ سورة الذاريات.

ليعبدون﴾[١].

فبيّن أنّه إنّما خلقهم لعبادته.

وقد روى عن النبي ﷺ رواية تلقّاها العامّةُ والخاصّة بالقبول.

قال: «كلّ مولود يولد على الفطرة، وإنّما أبواه يهودانه وينصّرانه...» وهذا أيضاً مبين عن صحّة ما قدّمناه من أنّ الله تعالى خلق الخلق ليعبدوه، وفطرهم ليوحّدوه، وإنّما أتى الضالّون مِن قِبَلِ أنفسهم وَمَن أضلّهم من الجن والإنس دون الله تعالى.

والذي أورده أبو جعفر ؓ في بيان الله الخلق وهدايتهم الى الرشد على ما ذكرنا، وقد أصاب في ذلك وسلك الطريقة المثلى فيه، وقال ما يقتضيه العدل ويدلّ عليه العقل...»[٢].

هذا الذي ذكره ؓ تامّ، في الجملة، إلاّ أنّ مواضع للتأمل وقعت فيه. إذ لو رجعنا الى الآية المباركة... ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لِخَلقِ الله﴾ ذيل الآية المباركة ينبيء عن أنّ هذا الأمر قد خُلِق من قبل الله تعالى ولا مجال لتبديله. فأيّ معنى لذكر أنّه لامجال لتبديل تلك العلّة الغائية للخلق التي هي التوحيد؟ كما توضّح هذا الامر في قول الصادق ؑ: «فطر الله الخلق على التوحيد» لأنّ العلّة الغائية كما نعلم تتحقّق وتوجد بمجرّد تحقّق المعلول ووجودِهِ خارجاً.

هذا أوّلاً...

وثانياً: العلّة بنفسها لامعنى لكونها مخلوقة لله تعالى وهي من خلق الله

---

(١) الآية: ٥٦ سورة الذاريات.

(٢) شرح عقائد الصدوق / الشيخ المفيد ١ / ص١٩٧.

تعالى، إذ العلّة هنا التوحيد كما يقول هو ﷺ في قول الصادق عليه السلام.

فهل التوحيد من مخلوقاته كي يقول سبحانه: ﴿**لاتبديل لخلق الله**﴾؟!

كما أنّنا لو وجدنا معنى آخر ينطبق الكلام عليه خالياً من الحذف والتأويل، يكون أولى بالأخذ من معنى آخر يحتاج الى ذلك مع تغيير ألفاظ الكلام، وإن كان الكلام الأوّل مستقيماً تامّاً بعد تأويلات وتفسيرات بعيدة، ومداقّة في النظر...

إذ نستطيع أن نقول إنّ الآية الكريمة مسوقة لبيان أنّ الله تعالى فطر الخلق على التوحيد كما قال الإمام الصادق عليه السلام بمعنى لو تُرك الإنسان وطبيعته التي طبعه الله عليها لما اختار إلاّ التوحيد إذ أنّه مجبول عليه ومهتدى إليه بما أودع فيه من وسائل تصل به إليه، وبهذا صرّح كثير من المفسرين...

«قال العلاّمة الشهرستاني في مجلّة المرشد ـ ج ١ ص٢٦ ـ ٢٧: الفطرة هي ما يقتضيه الشيء لو خلّي ونفسه وبدون مانع، فاذا قيل: «الصدق فطري في البشر» معناه أنّ الإنسان لو خلي ونفسه فإنّ حالته الفطرية تقتضي أن يصدق في كلامه. وهذه الفطرة قد تدوم كما هو الغالب، وقد تزول عنه بمانع أقوى فيلتجيء الى الكذب كما أنّ القائل سقوط الحجر الى الأرض طبيعي، معناه أنّ الحجر المتحرك حول الأرض لو خلّي ونفسه فحكمه السقوط على الأرض وهذا لايمنع أن يتخلف عن طبيعته لعارض أو بسبب قاسر.

وعليه، فكون دين الاسلام فطرياً في البر لاينافي وجود سبب عارض يقسرُهُ يوماً على مخالفة الفطرة.

كما يصرّح بذلك حديث: كلّ مولود يولد على الفطرة وإنّما أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه...»[١].

---

(١) هامش كتاب شرح عقائد الصدوق للشيخ المفيد / الشهرستاني: ص١٩٧.

مِن هذا كلّه يظهر لنا ان هناك استخلافاً قد هُيأ لهُ، ومنه يظهر ان معرفة المُستخْلِف ـ بصيغة اسم الفاعل، لابدّ وان تحصل لكي يكون المُستخلف ـ بصيغة اسم المفعول ـ واثقاً مِنْ أدائه لهذه الكرامة...

مِن هنا نعرف بعض أبعاد نقاط التوحيد التي صرّح بها اللهُ سبحانهُ في كتابه والعدل الذي هو ديدنُهُ وشأنُه...

أُسس الإستخلاف:

ونستطيع أن نجمع خيوط هذا الاستخلاف بأسس أربعة وربّما كان بالامكان حصرها باقل أو بأكثر حسب الإطناب والإيجاز ولزوم بعضها لبعض بل اندكاك بعضها في بعض، ولكن بما انّ الشائع ذلك نكتفي بذلك.

وَقَد عَبّر عنها الشهيد الصدر ﵀ بصيغة الاستخلاف[1] ونقولُ: بانّ هناك أساساً خامساً هو عبارة عن نتيجة هذا الاستخلاف وسنذكره بعد ذلك ليتضح الأمر أكثر ويكون جليّاً لانقص فيه.

---

(١) محاضرات السيد في النجف الأشرف.

الأساس الأوّل:

التوحيد:

وقد رسمه القرآن الكريم واضحاً جليّاً لا لَبْسَ فيه لانّه أساس الإسلام حتّى أنّ سورة منه هي سورة التوحيد وان كانت مِن صغريات السور لانّ آياتها لم تتجاوز الخمس عادلت ثُلُث القرآن[١] لشمولها عليه[٢].

واتّبع القرآن الكريم لإثبات ذلك أدلّة عدّةً منها لا على وجه الحصر:

١ـ بيان أنّ السموات والأرض لابدّ أن يكون خالقهما واحداً والاّ لفسدتا، وذلك على وجه الاجمال **﴿لو كانَ فيهما آلهةٌ إلاّ الله لَفَسدتا[٣]﴾**[٤].

---

(١) مع العلم بانّ آيات القرآن الكريم اكثر من (٦٢٣٦) آية.

(٢) (وقد تكاثرت الروايات من طرقهم في هذا ورووه عن عدّة من الصحابة كابن عباس وابي الدرداء وابن عامر وجابر وابن مسعود وأبي سعيد الخدري ومعاذ ابن انس وأبي أيوب وأبي امامة وغيرهم عن النبي ﷺ وورد أيضاً في عدة من الروايات عن ائمة أهل البيت عليهم السلام. وقد وجهوا كون السورة تعدل ثلث القرآن بوجوهٍ مختلفة أعدلها انّ ما في القرآن من المعارف تنحل الى الاصول الثلاثة: التوحيد والنبوة والمعاد، والسورة تضمن واحداً من الثلاثة وهو التوحيد).

تفسير الميزان ـ طبع موسسة الاعلمي بيروت ١٩٧٤ ج٢ ـ ص٢٩٥ السيد محمد حسين الطباطبائي.

(٣) الآية: ٣ من سورة الانبياء ـ ٢١ ـ.

ولايمكنُ ان تكونَ (الاّ) هنا للاستثناء كما قد يُتوهم ذلك بدواً، لإنّ الشرك بذلك لاينتفي، كما هو واضح عند التمعّن، إذ المعنى سيكون حينئذٍ:

لو كان فيهما آلهةٌ وهذه الآلهة ليس الله فيها لفسدتا، أما إذا كان فيها الله فمسكوتٌ عن الفساد وعدمه، وان كان المعنى الاقرب حينئذٍ هو عدم الفساد وهو كما ترى.

إذن يجب أن تكون (الاّ) هنا للوصف[٥].

ويكون معناها (غير)، وحينئذٍ ستكون (الاّ) وما بعدها صفةٌ فيصبح المعنى على هذا:

لو كان فيهما آلهةٌ وهذه الآلهة موصوفةٌ بكونها غير الله لَفَسدتا فيجب على هذا المعنى ان توصف بكونها الله، أي يجب أن تكون الآلهة المتعددة إلهاً واحِداً صمداً لكي لاتفسد السموات والأرض. وعدمُ فسادهما دلالة على الإلٰه الواحد[٦].

٢ـ ثُمّ ذكر ذلك على وجه التفصيل.

﴿.. وما كانَ معهُ من إلٰهٍ إذاً لَذَهَبَ كلُّ إلٰهٍ بما خلقَ ولَعلا بعضُهُم على بعضٍ سبحان الله عمّا يصفون[٧]﴾[٨].

---

(٤) وسئل الامام الصادق عليه السلام: ما الدليل على ان الله واحد؟ قال عليه السلام: اتصال التدبير وتمام الصنع كما قال عزّوجلّ: (لو كان فيهما الهة الاّ الله لفسدتا) / التوحيد / ٣٦ / ج٢.

(٥) وهو رأي سيبويه وصَوّبهُ ابن هشام ـ مغني اللبيب عن كتب الاعاريب.

(٦) عن هشام بن الحكم قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ما الدليل على انّ الله واحدٌ؟! قال: اتصالُ التدبير وتمام الصنع كما قال عزّوجلّ: (لو كان فيهما آلهة الاّ الله لفسدتا).

عن كتاب التوحيد للشيخ الصدوق ١ ص ٢٥٠ ط . دار المعرفة ـ بيروت.

(٧) الآية: ٩٢ سورة المؤمنون ـ ٢٣ ـ.

٣ـ ومنها الرجوع الى الفطرة التي في داخل الإنسان.

﴿وَلَئِن سألتهم مَن خلق السمٰوات والأرض وَسخّرَ الشمسَ والقمر لَيقولنّ الله[٩]﴾[١٠].

وهكذا في آيات أُخر: ﴿وَلَئِنْ سألتُهم مَن نزَّلَ ماءاً فأحيا به الأرضَ مِن بعدِ موتها ليقولنَّ الله﴾[١١].

ومن هنا ذكر في مواطن كثيرة.

﴿اللهُ لا إله الاّ هو...﴾[١٢].

لجهاتٍ عِدّةٍ ومِن بينها هذا الأمر.

بل كان ثمّة امرٌ بعد أن كان مَن العقل امرٌ واضحٌ:

﴿فاعلمْ انّهُ لا إلهَ إلاّ الله[١٣]﴾[١٤].

---

(٨) ومن وصية لأمير المؤمنين عليه السلام للحسن عليه السلام: «واعلم يابنيّ انّهُ لو كان لربك شريك لأتتك رسولَهُ، ولرَأيتَ آثار ملكه وسلطانه، ولَعَرفت أفعاله وصفاته. ولكنّه إلهٌ واحدٌ كما وصف نفسه...».

نهج البلاغة / شرح محمّد عبده / ص٤٥.

(٩) الآية: ٦٢ سورة العنكبوت ـ ٢٩ ـ

(١٠) عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى: (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذرّيتهم واشهدهم على أنفسهم) / ١٧٣ سورة الأعراف.

قال عليه السلام: «كان ذلك معاينة لله فأنساهم المعاينة واثبت الاقرار في صدورهم، ولولا ذلك ما عرف أحد خالقهُ ولا رازقه وهو قول الله تعالى:

(ولئن سألتهم مَن خلقهم ليقولنّ الله) / الآية ٨٨ سورة الزخرف.

(١١) الآية: ٦٤ سورة العنكبوت ـ ٢٩ ـ.

(١٢) الآية: ٢٥٦ سورة البقرة ـ ٢ ـ.

(١٣) الآية: ٢٠ سورة محمّد صلى الله عليه وآله ـ ٤٧ ـ.

الأساس الثاني:

العدل:

وبه ينطق العقلُ وجاء القرآنُ مُرشِداً وَمنقّحاً.

﴿تِلكَ آياتُ اللهِ نتلوها عليك بالحقّ وما اللهُ يريد ظلماً للعالمين﴾(١٥).

فَعدمُ إرادة الظلم للعالمين يعني ارادة العدل بعينه لانهما نقيضان لا يجتمعان ولا يرفتعان.

وهذه الارادةُ ليست إرادةً تشريعيّةً، فحسب، بل ارادةٌ تكوينية كذلك على ما هو الظاهر، إذ عبّر سبحانهُ بالعالمين ولم يعبّر بالعبادِ مثلاً أو بأيّ نوعٍ من أنواع المكلّفين.

والفرق بين الإرادتين انّ الاولى منهما معناها أن الله سبحانه يريدُ ذلك تشريعاً فيُشرِّعُهُ، إلاّ أنّهُ لايجبر على المسير عليه أحداً، كما اراد الله للناس أن

---

(١٤) نحب أن ننبّه هنا على شيء مهم وهو أن هذه الاعتقادات التي تسمّى بأصول الدين يجب الايمان والاعتقاد بها لا عن تقليد، ولا حتّى عن طريق الكتب السماوية نفسها، لانّ ذلك يستلزم الدور كما هو واضح؛ بل يجب الاعتقاد بها عن طريق العقل...

ونحن تعميماً للفائدة وتقويماً للاعتقاد وللاطمئنان الذي طلبه ابراهيم الخليل عليه وعلى نبينا وآله أفضل الصلاة والسلام نذكر ذلك.

(١٥) الآية: ١٠٩ سورة آل عمران ـ ٣ ـ.

يتّبعوا الايمان إلاّ أنّه لم يجبرهم عليه.

﴿فَمَن شاءَ فليُؤمِنْ وَمَن شاء فليكفر﴾[١].

واما الثانيةُ: فلا مناص مِن وجودها وتحققها ولايمكنُ لها ان تتخلّف في الخارج.

وهذه الآية المباركة تشير الى ثاني الارادتين، إذ انّه سبحانهُ تكويناً لايريد ظلماً لهم؛ وبهذا لايكون حتّى في التشريع ظلم والاّ لعُدِمتْ فيهِ وهذا لايُمكن كما وَضّحنا.

ويقوّي هذا الحديث ورودها بعد أن ذَكَرَ أصحاب الجنّة وأصحاب النـار ولذا نرى انّ الآية المباركة التي ذكرت أصحاب الجنّة هنا ذكرتهم بلا اشارة الى أيّ خطاب لهم:

﴿وامّا الّذينَ ابيضّت وجوهُهُم ففي رحمةِ الله هم فيها خالِدون﴾[٢].

بينما عند ما ذُكِرَ مِن قبْل اصحابُ النار، ذُكِروا والخطاب مُوجّهٌ لهم:

﴿أكفرتُمْ بعد إيمانكم...﴾.

ليُبيّنَ انّهم هم كفروا، ولم يُجبروا، على الكفر، ولذا ترتّب على كفرهم أنْ قال لهم:

﴿.. فذوقوا العذابَ بما كنتم تكفرون﴾[٣].

وقد أرشدهم للعدل ونبّههُم من ان ينحرفوا عن الحقّ لبغضهم لقـوم فـقال تعالى:

---

(١) الآية: ٣٠ سورة الكهف ـ ١٨ ـ.

(٢) الآية: ١٠٨ سورة آل عمران ـ ٣ ـ.

(٣) الآية: ١٠٧ آل عمران ـ ٣ ـ.

﴿ولا يجرمنّكم شَنانُ قوم على ألاّ تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى﴾[١]..

فالنهيّ أوّلاً يدلّ عليه، ثمّ الأمرُ بالعدلِ ثانياً يؤكدُهُ، وهذا ما اوضح اساليب البيان في اثبات شيء: النهي عن ضدّه ثمّ الأمرُ به، وهو أُوكد لتثبيته، ومنه النفي قبل الاثبات وعليه جاءت كلمةُ التوحيد ﴿لا إله إلاّ ـ الله﴾ نفياً وإثباتاً.

وقد طلب منهم في مكانٍ آخر إذا حكموا أن يعدلوا.

﴿وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[٢].

وقد عاب ـ على قومٍ أنّهم أمروا بشيء ونسوا أنفسهم، فقال تعالى مخاطباً إيّاهم:

﴿أتأمرونَ الناسَ بالبرِّ وتَنسونَ أنفسكم﴾[٣].

فكيف لايعمل بما أمر؟!

وقد أكّد أمره بالعدل في قوله تعالى:

﴿إنّ الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذي القربى﴾[٤].

ودفعاً للمداخلة والتوهم من انّهُ، ربّما يكون قد أمر بِهِ ولا مُلزِمَ لفعله هو لهُ لانّه المولى ولَهُ التصرّف بخلقه أنّى شاء صرّح بِهِ في مقامٍ آخر فقال تعالى:

﴿وَتمّت كلمةُ رَبّكَ صِدقاً وَعَدلاً لامُبَدّلَ لكلماتِهِ﴾[٥].

وقد قال تعالى: ﴿وما ربّكَ بِظلاّمٍ للعبيد﴾[٦].

---

(١) الآية: ٩ سورة المائدة ـ ٥ ـ.

(٢) الآية: ١٥٩ سورة النور ـ ٢٤ ـ.

(٣) الآية: ٤٥ سورة البقرة ـ ٢ ـ.

(٤) الآية: ٩١ سورة النحل ـ ١٦ ـ.

(٥) الآية: ١١٦ الأنعام ـ ٦ ـ.

(٦) الآية: ٤٧ سورة فُصّلت ـ ٤١ ـ.

وقال تعالى: ﴿ما يُبَدلُ القولُ لديّ وما أنا بظلاّم للعبيد﴾[١].

ثُمّ أكّد هذا بقوله: ﴿إنّ الله لايظلمُ مثقالَ ذرّةٍ﴾[٢].

وما شاء الله من الآيات المبثوثة في كتابه العزيز مُصرّحاً ومُلمّحاً لذلك كلّه.

﴿وَما يُنبّأُكَ مِثلُ خبير﴾[٣].

وقد ذكر ذلك شيخنا المفيد ﷺ في أوائل مقالاته بقوله: «إنّ الله ـ عزّوجلّ ـ عدل كريم، خلق الخلق لِعبادته وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته، وعمّهم بهدايته، بدأهم بالنعم، وتفضّل عليهم بالاحسان، لم يكلّف احداً دون الطاقة، ولم يأمره الاّ بما جعل له عليه الاستطاعة، لا عبث في صنعه، ولاتفاوت في خلقه ولا قبيح في فعله، جلّ عن مشاركة عباده في الأفعال، وتعالى عن اضطرارهم الى الاعمال لايعذّب احداً الاّ على ذنب فعله، ولا يلوم عبداً الاّ على قبيح صنعه. لايظلم مثقال ذرة فإنّ تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه اجراً عظيماً.

وعلى هذا القول جمهور أهل الامامية، وبه تواترت الأخبار عن آل محمّد صلّى الله عليه وآله»[٤].

* * *

(١) الآية: ٣٠ سورة ق ـ ٥٠ ـ.

(٢) الآية: ٤١ سورة النساء ـ ٤ ـ.

(٣) الآية: ١٥ سورة فاطر ـ ٣٥ ـ.

(٤) أوائل المقالات / الشيخ المفيد / ص٦٣.

الأساس الثالث:

النبوّة:[١]

ونشاهِدُ في آياته أنّه قد جعل للناس مُبشّرينَ ومنذرين.

﴿كانَ الناسُ أمّةً واحدةً فبعث اللهُ النبيّين مُبشّرينَ ومنذرين﴾[٢].

وقد أخذ ميثاقهُمْ.

هذا على الاجمال.

وأمّا ما ذكره على التفصيل فقد كان لكلّ أمةٍ رسول:

﴿وَلِكُلّ أُمّةٍ رسول﴾[٣].

---

(١) قال أبو عبدالله عليه السلام إنّا لمّا أثبتنا أنّ لنا خالقاً صانعاً مُتعالياً عنّا وعن جميع ما خلق، وكان ذلك الصانع حكيماً، لم يجز أن يشاهدهُ خلقه ولايلامسهم ولا يلامسوه ولايباشرهم ولايباشروه ولايحاجّهم ولايحاجّوه ـ لما أشرنا اليه بالخط الأوّل ـ فثبتَ انّ له سفراء في خلقه وعباده يدلّونهُم على مصالحهم ومنافعهم وما به بقاؤهم وفي تركه فناؤهم ـ لما اشرنا اليه بالخط الثاني ـ فثبت الآمرون والناهون عن الحكيم العليم في خلقه وثبت عند ذلك انّ له معبّرين وهم الانبياء وصفوته من خلقه، حكماء مؤدّبين بالحكمة مبعوثين بها غير مشاركين للناس في أحوالهم على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب.

التوحيد / الشيخ الصدوق رحمه الله / ص٢٤٩.

(٢) الآية: ٢١٤ سورة البقرة ـ ٢ ـ.

(٣) الآية: ٤٨ سورة يونس ـ ١٠ ـ.

وقد ذكر ذلك باساليب عدّة في مواضع كثر من كتابهِ العزيز.

﴿وما كانَ ربّك مُهلِكَ القرى حَتّى يبعثَ في أُمّها رسولاً﴾(١).

﴿لئِلاّ يكون للناس على الله حجّةٌ بعد الرسل وكان الله عزيزاً حكيماً﴾(٢).

وليس اختيار هؤلاء الرسل يتمُّ بلا ترجيح، بل بميزانٍ دقيق جدّاً لا نَعلمُ منهُ إلاّ ظاهراً، ويشير الى ذلك سبحانهُ سبحانَهُ وتعالى في آياتٍ كثيرة.

﴿اللهُ يصطفي من الملائكة رُسُلاً وَمِنَ النّاس﴾(٣).

فالإصطفاء الّذي ورد في الآية المباركة يدلُّ على الاختيار الدقيق فهو مأخوذٌ امّا من الماءِ إذا صفى وذهبت كدرتُهُ أو من صفّيتُ الشراب بالمصفاةِ إذا نقّيتُهُ(٤).

﴿والإصطفاء أخذ صفوة الشيء وتميزه عن غيره إذا اختلطا﴾(٥).

(والاصطفاء أخذ صفوة الشيء وخالصته، قال الراغب: الاصطفاء تناول الشيء، كما أن الاختيار تناول خيره والاجتباء تناول جبايته ـ فاصطفاء الله تعالى من الملائكة رسلاً ومن الناس اختياره من بينهم من يصفو لذلك ويصلح)(٦).

وقال تعالى: ﴿اللهُ أعلمُ حيث يجعل رسالته﴾(٧).

فالمحلّ يجب أن يكون قابلاً لهذا العبأ الثقيل والامرِ الجسيم ويكونَ مُتصفاً

---

(١) الآية: ٦٠ سورة القصص ـ ٢٨ ـ.

(٢) الآية: ١٦٦ سورة النساء ـ ٤ ـ.

(٣) الآية: ٧٦ الحج ـ ٢٢ ـ.

(٤) راجع مادة صفو ـ اساس البلاغة للزمخشري ـ بتصرّف وتقريب.

(٥) الميزان: ج١ ص٣٠٠ ط . ايران.

(٦) الميزان: ج١٤ ص٤٠٩ ط . ايران.

(٧) الآية: ١٢٥ سورة الأنعام ـ ٦ ـ.

بصفاتِ الكمالِ التي منها ما لايُمكن الوصول الى معرفته الاّ بإرشادٍ من الله وبيان، وَمِنْ اخصّ خواص ذلك عصمتُهم؛ ويستدلُّ عليها بعد الإستدلال عليها بـالعقل بآياتٍ كثيرةٍ.

ومَنْ يحبّ الاطلاع على تفاصيل ذلك، فعليه بالكتب العقائدية الكثيرة التي تفصّل ذلك تفصيلاً ولا تترك لذي شكٍ شكّاً[١].

وكفى في هذا المقام قولهُ تعالى في صفة رسوله الكريم محمّد ﷺ.

﴿وما ينطِقُ عن الهوى * إن هُو إلاّ وحيٌ يوحى﴾[٢].

وَأُمرنا بطاعتهم في ما شاء الله من آياته.

﴿وَما أرسلنا من رسولٍ إلاّ لِيطاعَ بإذن الله﴾[٣].

بل إطاعته اطاعة الله بعينها ﴿مَن يُطعِ الرسول فقد أطاع الله﴾[٤].

وهذه الطاعة تبينها الآية المباركة.

﴿وما آتاكُم الرسولُ فخذوهُ، ومانهاكُم عنه فانتهوا، واتّقوا الله إنّ الله شديد العقاب﴾[٥].

وقولُهُ تعالى: ﴿وما كان لِمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى اللهُ ورسولُه أمـراً أن يكون لهم الخيرةُ من أمرِهِم ومن يعصِ الله ورسولُه فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾[٦].

ولابأس بالتعرض لاحدِ هذه الآيات المباركة تفصيلاً غير مخلّ بالمقصود.

---

(١) منها مثلاً كتابنا (العصمة).

(٢) الآية: ٤، ٥ سورة النجم ـ ٥٣ ـ.

(٣) الآية: ٦٥ سورة النساء ـ ٤ ـ.

(٤) الآية: ٨١ سورة النساء ـ ٤ ـ.

(٥) الآية: ٨ سورة الحشر ـ ٥٩ ـ.

(٦) الآية: ٣٧ سورة الأحزاب ـ ٣٣ ـ.

قال تعالى: ﴿اطيعوا الله واطيعوا الرسول...﴾[(١)].

نستفيد من هذه الآية المباركة استفادات عديدة منها:

الاستفادة الأولى:

إطاعةُ الله سبحانهُ جاءت في الآية الشريفة خاليةً من أيّ قيد وبما أنّ اطاعة الرسول ﷺ جاءت كذلك وعطفت على إطاعته تعالى، إذاً يجب أن تكون مطابقةً لها كما هو الظاهر.

الاستفادة الثانية:

بما أنّ الله سبحانهُ منبعُ العصمة، إذاً يجب أن يكون الرسولُ ﷺ معصوماً وإلاّ لاختلّت الاطاعة الثانية ولما عُطِفَت على الاطاعة الاولى كما هو ظاهر.

الإستفادة الثالثة:

قولُهُ تعالى في نهاية الآية المباركة: ﴿فانْ تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول إن كنتم تؤمنون باللهِ واليومِ الآخر ذلك خيرٌ واحسنُ تأويلاً﴾[(٢)].

يظهر وجوب كون الرسول ﷺ معصوماً وإلاّ لَطُلِبَ منهم أن يردّوه الى الله فقط، لِئلا يحدث الخطأ بخطأ رسوله ﷺ، ولمّا قال في نهاية الآية ﴿ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾ لانّه ان لم يكن معصوماً لأغرانا الله بالباطل سبحانه وأدلانا به.

هذا أولاً، وثانياً إنّ الارجاعَ الى الله غير واضح على ما هو عليه، لأنّ الله غير ملموس ولا محسوس فالارجاع اليه ارجاعٌ الى حكمه، وحكمُهُ مستفادٌ من قِبَل الرسول ﷺ، وهو الذي يمثله[(٣)].

---

(١) الآية: ٦٠ سورة النساء ـ ٤ ـ.

(٢) الآية: ٦٠ سورة النساء ـ ٤ ـ.

(٣) «وقد قال الله سبحانه (فان تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول) فردّوه الى أن نحكم

فقولُهُ تعالى: فردّوهُ الى الله كافٍ، أو إلى الرسول كذلك على هذا، الاّ انّه لم يكتف بذلك بل قال فردّوهُ الى الله والرسول، ليبين لنا أنّ الردّ الى الرسول ﷺ بمنزلة الردّ الى الله، وما بيّنه الرسول بمنزلةِ ما بيّنهُ الله سواءٌ أظهر هذا الرسول وقال هذا حكم الله، ام لم يظهر ذلك؛ حتّى وإن قال هذا حكمي كما هو بيّنٌ في أيّ أمرٍ صدر منه، وما هذا الامرُ الاّ العصمة.

ولعلّهُ لما ذكرنا لم يتكرر حرف الجر، بل عطف الرسول على الله بـدونه، ليدلنا على عدم الاثنينيّة في ذلك، بعد أن كرّر لفظ الاطاعة ليؤكّدها وليركزها في اذهان الّذين آمنوا.

الاستفادة الرابعة:

عطف اولي الامر على الرسول وإطاعتهما على إطاعة الله يقتضي عصمتهم لما قدّمناهُ في عصمة الرسول ﷺ.

بل نقول اكثر ببركة ورود امرٍ واحـد بـالاطاعة للـرسول ولاولي الأمـر فاطاعتهما واحدةٌ، ولذا لم يذكر أولي الأمر مرّة اخرى في نهاية الآية لاندكاكهم في الرسول ﷺ، وللبيان والتوضيح أتى بهم اولاً، وللاختصار ولبيان وحدتِهِم بعد أن جعل لهما إطاعةً واحدةً لم يذكر الاّ الرسول ﷺ، أخيراً وهو واضحٌ بحمد الله وبركته.

ولو جوّزنا ألاّ تكون اطاعة اولي الامر مطلقة كما كانت اطاعة الرسول ﷺ

= بكتابه...» وقد بين سلام الله عليه قبل ذلك في نفس الخطبة. «وهذا القرآن انما هو خطٌ بين الدفتين لاينطق بلسانٍ ولابدّ لهُ مِن ترجُمان وإنما ينَطقُ عنه الرجال...».

ومن أولى من الرسول ﷺ في المنطق عنه.

نهج البلاغة /شرح الشيخ محمد عبده/ص٢٥٨.

للزمِ ان يكون استعمالُ اللفظ امّا من باب استعمال المشترك في اكثر من معنى، وهذا ما لايجوّزهُ اكثر اصحاب التحقيق ان لم يكن كلّهم.

أو من باب المجاز وهو خلاف الظاهر، فضلاً من انّ السياق لايُساعد عليه بعد قوله تعالى: ﴿فان تنازعتم في شيء فردّوه الى الله والرسول..﴾ ولم يذكر اولي الامر لما ذكرناه، وبعد قوله ختاماً: «ذلك خيرٌ وأحسنُ تأويلاً﴾، ﴿وقد وصَل **اللهُ طاعةَ وليّ أمرهِ بطاعة رسوله وطاعة رسوله بطاعته، فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ورسوله**»[1].

وقد اقرّ الرازي بدلالة هذه الآية على العصمة[2] ولكنّه لحاجةٍ في نفسه أوّل اولي الامر بأهل الإجماع بلا دليلٍ يرتكز عليه.

وقد ردّهُ الشيخ محمّد حسن المظفّر ﷺ في دلائل الصدق[3]:

أولاً: «وفيه: إنّ المنصرف من اولي الأمر من لهُ الزعامة» وهذا خلاف أهل الاجماع.

وهذا الردّ نوافق عليه.

ثانياً: (إنّ ظاهر الآية إفادة عصمة كلّ واحدٍ منهم لامجموعهم، لانّ ظاهرها ايجابُ اطاعة كلّ واحدٍ منهم). وهو ما لايعتقده مَن ذهب الى القول بعصمة أهل الاجماع إذ العصمة عنده منبثقة منهم بما هم مجتمعون، وإلاّ فكلّ واحدٍ منهم قابلٌ للإشتباه والخطأ.

وهذا غير واضح من الآية المبارة، ولذا يستطيع أن يدّعي خلافه.

---

(١) الكافي /ج/٢ص٤٧ ـ ١٨٢.

(٢) يُراجع للاطلاع على رأيه تفصيلاً كتابه / مفاتيح الغيب / ج٣ / ص٢٥٧.

(٣) دلائل الصدق / الشيخ محمد حسن المظفر ﷺ / ص١١.

ثالثاً: (على أن العمل بمقتضى الاجماع ليس من بـاب الطـاعة لهـم، لانّ الاجماع من قبيل الخبر الحاكي).

وهذا ليس محلّ ذلك، ففيه ما فيه.

فَلَم يبقَ إلاّ أن التمسك بانّ تأويله لاولي الأمر بأهـل الاجـماع خـلاف الظاهر أصلاً ويحتاج الى دليلٍ واضحٍ، لاسبيل لهُ، ولا دلالة للآية المباركة عليهم لا من قريبٍ ولا من بعيد، مع الانصراف المـذكور اوّلاً فـيتعيّن مَـن لهُ الزعـامةُ والإمامة، وهو الإمام بزعمنا لا غير.

وقد أشكل الرازي[1] على انّ المراد بهم الأئمة عليهم السلام بوجوهٍ مشوّهة:

الوجه الأوّل منها:

انّ الطاعة لهم مشروطة بمعرفتهم وقدرةِ الرصول اليهم وإذا قلنا: إنّه يجب علينا ذلك، إذا صرنا عارفين بهم وبمذاهبهم صار مشروطاً وهو مطلق.

وفيه:

أ ـ النقض: بطاعة الله ورسوله وطاعة أهل الاجماع على رأيه ـ الشريف ـ.

ب ـ الحل: فالطاعة ليست مشروطةً بمعرفتهم وبقدرة الوصول اليهم، بـل مطلقاً كما هي طاعة الله ورسوله... فيجب تحصيل المعرفة بهم، كما في معرفة الله والرسول صلى الله عليه وآله وسلم والاّ لو التزمنا بما ذكر في أولي الامر لَوَجب ذلك أيضاً فـي الله والرسول وهو كما ترى.

الوجه الثاني:

إنّ أولي الامر جمعٌ وعندهم لايكون في الزمان الاّ امامٌ واحد وحمل الجمع

---

(١) مفاتيح الغيب / الرازي / ج٣ / ص٢٥٧.

على الفرد خلاف الظاهر.

(وفيه: إن المراد هو الجمع ولكن بلحاظ التوزيع في الازمنة، ولا منافاة فيه للظاهر)[١] بل نقول أكثر من ذلك وهو وجوب طاعتهم كلّهم على حدّ سواء، وإن كان الامام واحداً في كل عصر، وهذان مقامان مختلفان وهو واضحٌ لِمَن تدبّر.

الوجه الثالث:

﴿فإن تنازعتم في شيء فردّوهُ الى الله والرسول﴾[٢].

ولو كان المراد بأولي الأمر الإمام المعصوم لوجب أن يقول: فإن تنازعتم في شيء فردّوهُ الى الإمام.

وفيه: (انّ الردّ الى اولي الأمر ايضاً مأمورٌ به، ولكن اكتفى عن ذكرهم في آخر الآية بما ذكره في أولها من مساواة طاعتهم بطاعة الله ورسوله)[٣] بل نقول أكثر من ذلك من انّ المصدر الرئيس للتشريع هو الله سبحانهُ، ولا يجب اطاعة أيّ مخلوق. فهو الاساس في الاطاعة واطاعة المخلوقين تأتي وتترشح من الباري عزّوجلّ؛ فذكر تفصيلاً مَن تجب طاعتُه ابتداءاً ثُم اخيراً بيّن الطرفين الاساسيين في عملية الاطاعة وهي المرسلُ والمُرسَلُ لانّ الأساس إطاعة الله وإطاعة رسوله ثمّ بواسطة المرسلين تترشّح هذه الاطاعة كما انّه بالمعاجز يثبتها.

وثبوت الإمامة وولاية الأمر متوقفة على الرسول لبيانها وتوضيحها، فولاية الامر مستفادة من الله ورسوله.

فولاية الامر هي كذلك من الامور التي يُمكن أن يقع التنازع فيها كما

---

(١) دلائل الصدق / الشيخ محمد حسن المظفر / ص١١.

(٢) الآية: ٦٠ سورة النساء ـ ٤ ـ.

(٣) دلائل الصدق / الشيخ محمد حسن المظفر / ص١١.

وقع، وهذا الارجاع ارجاعٌ كلّي، ولو أُرجع اليهم أيضاً لَلَزِمَ الدور كما هو واضح فِلِذا لم يذكر الردّ إلاّ الى الله والرسول، وهو من الخفايا العجيبة التي استفدتها بعد التمعّن ولله الحمد، وكما ذكرنا اوّلاً ولاية الأمر مندكّةٌ في المرسل لاتفترق عنه فهو المصدر لها ومبينها، وَلِهذا وذاك ذكر الإرجاع اليه مكتفياً به كما هو واضح لِمَن ألقى السمع وهو بصير[١].

وَمِن هنا ظهر لنا أساسٌ آخر جليّاً واضحاً وهو:

الأساس الرابع: الامامة

ونذكرها اقتضاباً مع أنها من الأمور المهمّة جدّاً، ولاينبغي المرور عليها كذلك لأننا بدونه سنخرج عن حديثنا وندخل بأحاديث أُخر، فنضيّع الّذي بدأنا لاجله الحديث...

وان شاء الله تعالى وبتوفيقه إذا جعلني ذا حظٍ عظيم سأشبع ذلك بحثاً على حدّ إمكاني في أوراقٍ أُخر ومن الله التسديد[٢].

قال تعالى: ﴿وَمنْ يتولّ الله ورسولهُ والذين آمنوا فإنّ حزبَ الله هُمُ

---

(١) والذي يوجب الاطمئنان أكثر من ذلك كلّه أنّ هناك روايات جاءت عن رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية المباركة بالائمة المعصومين عليهم السلام فضلاً عن الروايات التي يعضد بعضها بعضاً من أنّ خلفاءهُ اثنا عشر خليفةً وهو ما ينطبق كليّاً على ما تدعيه الامامية وهو كافٍ في إبطال ما ذهب اليه الرازي في توجيهه أو ما إدعاهُ غيرُه بغيرهم ولم ترد في ذلك ولا رواية واحدة تؤيد ما ادّعوه من التأويل البعيد.

(٢) وقد تَمَّ بعض ذلك بحمد الله ومنّته بكتابين مستقلين أحدهما: الإمامة والحكومة في الاسلام وقد تكفّلت بطبعه مشكورة مكتبة النجاح لصاحبها سماحة الحجّة الحاج السيد مرتضى الرضوي وكتاب العصمة حقيقتها ـ ادلّتها وقد طُبع طبعتين.

الغالبون﴾[١].

ظاهرها ﴿انّ الذين آمنوا﴾ المشار اليهم في هذه الآية المباركة قومٌ مخصوصون، لا أنهم كلّ الّذين آمنوا الذين يكون المتولي جزءاً منهم فتأمّل.

وقال تعالى: ﴿والّذي أوحينا اليك مِنَ الكتاب هو الحقُّ مُصدقاً لِما بين يديه إنّ الله بعبادهِ لَخبيرٌ بصير * ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا مِن عبادنا...﴾[٢].

فمَن هُمُ الذين اصطفى مِن عبادِه؟!!

وعبادُهُ الباقون على أقسام: ﴿فمنهُم ظالِمٌ لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابقٌ بالخيرات بإذن الله ذلك هو الفضلُ الكبير﴾[٣].

فيقتضي من سياق هاتين الآيتين المباركتين أنّ هناك بعد رسول الله ﷺ اصفياء قد اختارهم اللهُ سبحانهُ واورثهُمُ الكتاب.

وقال تعالى: ﴿وإذا جاءَهُم أمرٌ مِن الأمِن أو الخوف أذاعوا به ولو ردّوهُ الى الرسول والى اولي الامر منهم لعلِمهُ الّذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لاتبعتُمُ الشيطان الاّ قليلاً﴾[٤].

فهنا لدينا عِدّةٌ من العناوين:

١ـ الّذين يأتيهمُ الامرُ ويذيعون به.

٢ـ الّذين يردّون الامور الى الرسول والى اولي الأمر.

٣ـ الرسول.

---

(١) الآية: ٥٧ سورة المائدة ـ ٣٥ ـ.

(٢) الآيات: ٣٢، ٣٣ سورة فاطر ـ ٣٥ ـ.

(٣) الآية: ٣٢ سورة فاطر ـ ٣٥ ـ.

(٤) الآية: ٨٤ سورة النساء ـ ٤ ـ.

٤ـأُولو الامر.

وفي قوله تعالى: ﴿لَعَلِمَهُ الّـذين يسـتنبطونَه مـنهم..﴾ عـنوانٌ خـامسٌ المستنبطون للحكم.

ومن الآية الكريمة يظهر أنّ العنوان الثاني داخلٌ في ظلّ العنوان الاوّل بل هو جزءٌ منه لا بالجزئية الحقيقية، بل بمعنى أنّ هؤلاء المذيعين لو ردّوا الأمور قبل ذلك الى مَن ذُكِرَ في الآية لَعَلِموا الحقّ في الامر، فهم منهم من هذا الجـهة كـما لايخفى.

أولاً: وقبل كلّ شيء نقول: إنّ الظاهر من تعدد العنوان تعدد المعنون الى أن يثبت انّ العناوين لواحد، وخاصّةً إذا وردت في كلامٍ واحد، يُساعدُ ظاهرُه على ذلك، ثُمّ سياق الآية كما ترى يدلّ على المغايرة.

ثانياً: نتسائلُ ما المقصودُ ﴿بأُولي الأمر منهم﴾ هنا...

هناك دعويان يطفحان هذه الأيام في الخارج ولا ثالث لهما.

١ـأن يكونوا هُمُ الحكام.

٢ـأن يكونوا الأئمة المخصوصين الذين نعتقد إمامتهم.

فإن كان الاول لَزِمَ منهُ عدم صدق ذلك وذلك لأنّ أغلب هؤلاء كما يعلم المطلعون على التاريخ الاسلامي من بدايته الى الآن يعلمون عـلم اليـقين بـانّ أغلبهم إن لم نقلْ كلّهم لا عِلمَ لهم باحكام الله، فكيف يُرجعُ الله تعالى المـؤمنين اليهم لِمعرفة أحكامه منهم، وهذا ما لايفعله جاهلٌ فضلاً عن ربّ العزّة سبحانه.

هذا اولاً وأما ثانياً فنقول: بما أن الحكّام كذلك الاّ نفراً أو نفرين فلايُمكن أن يُصب العموم فيهما، لانّه نادرُ الوقوع وقليله، فلايفعل ذلك مُبتدأٌ في اللغة فضلاً عمّن اعجز كتابه من هذه الجهة بالخصوص ومن جهات أخر البشر قاطبةً.

ثم نقول ثالثاً: إذا تم الرجوع الى اولي الامر هؤلاء فما فائدة وجودِ الّذين يستنبطونهُ منهم، بعد أن سمعوا الحكم ورأوا ما يفعله الحاكم، ولاتخلو بلادٌ منهُم لانّه اذا قلنا بانّها تشمل الرأس الاكبر في الحكم فهي تشمل كلّ رأسٍ كذلك في كلّ منطقةٍ ولو صغيرة، فما ادخل ذاك أدخل هذا، ولافرق فلاتبقى فائدةٌ للمستنبطين وامّا على قولنا فالفائدةُ مستمرة سواءٌ بحضور الامام أم بغيبته كما هو ظاهر.

ورابعاً: إن قيل: إن الظرف الذي يلي أولي الامر يقتضي أن يكون اولوا الامر من اولئك الذين أذاعوا فنقول:

بالاضافة الى ما قدّمناه، واستبعاد أن يكونَ اولوا الامر منهم بالخصوص نقول: إن الظرف راجعٌ الى الرسول والى اولي الامر كليهما.

ولايقدح شيء في ذلك بعد قوله تعالى: ﴿كما ارسلنا فيكم رسولاً منكم..﴾[1].

وبعد قوله تعالى:

﴿لقد جاءكم رسولٌ مِن أنفسكم عزيزٌ عليهِ ما عنتُّم..﴾[2].

ولم يكن هو منهم بشيء من الضلالة التي كانوا فيها؛ فالظاهر كونُهُ ظرفاً مستقراً أي اولوا الامر الكائنون منكم.

هذا أولاً وثانياً اذاكان أُولوا الأمر مِمّن اذاع ذلك الامر من الأمن أو الخوف كيف يُردُّ اليهم ما صَدَر منهم لِيُقوّم؛ ولايمكن ان يكون الرسولُ كذلك فعطف اولئك عليه يُعلمُ منه انّهم كذلك لايمكن صدور تلك الاذاعة منهم لذا يجب أن يكونوا غيرهم.

---

(١) الآية: ١٥٢ سورة البقرة ـ ٢ ـ.

(٢) الآية: ١٢٨ سورة التوبة ـ ٩ ـ.

وأخيراً من حقنا أن نسأل: هل إن الحكّام الذين رأينا فضلاً عمّن سمعنا عنهم وقرأنا ولنتكلم بضميرنا ووجداننا هل من المعقول ان الله سبحانه يجعل هؤلاء بمنزلة الرسول ﷺ ويُرجِعُ احكامهُ اليهم؟!!

فما اتعسنا واشقانا...

فكم حلّلوا حراماً وحرّموا حلالاً حتّى وصل الجهل ببعضهم بأن ضرب كتاب الله عرض الحائط وتمسكوا بما قالهُ الناقص...

وصرّحوا بانّ علينا أن نحافظ على روح الدين الاسلامي فقط.

فهنيئاً لنا وستر الله عليهم، اذ أنهم استطاعوا أن يمحوا الاسلام ولم يفعلوا بل حافظوا... ولا اطيل ... فالطريق زَلِقٌ.

ولا يمكن أن يكونوا كما قيل[١].

أ ـ الخلفاء الراشدين.

ب ـ أمراء السرايا.

ج ـ العلماء، أو حتّى غيرهم.

لكل ما قلناهُ وذكرناهُ أو لبعضه كما لا يخفى على من تدبّر وتفكّر في المقام.

ونقول من جهةٍ أخرى: إنّهُ لا يمكن ان يكون المستنبطون هُمُ الرسول وأولي الأمر وذلك:

١ ـ لانّ الرسول لا يمكن ان نُثبِتَ في حقّه الاستنباط بل انّه ﴿ومايَنطق عن

---

(١) نقل بعض الاقوال صاحب مجمع البيان في تفسير هذه الآية المباركة، كما وَنُقِل في الدر المنثور في تفسير آية (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم) مع جمع وطرح حوالي تسعة أقوال / ج٢ / ص١٧٦.

الهوى * إن هو الاّ وحيٌ يوحى﴾[١].

والاستنباط للحكم غير تلقّي والقائه للناس بنفسه.

٢ـ ولايمكن أن يكون أولوا الأمر كذلك لانّهم قد عُطِفوا على الرسول في الارجاع اليه واليهم، ولو كانوا مستنبطين أيضاً لما أُرجِعَ اليهم مع الرسول.

٣ـ وَلَمّا كان ثمّة فائدة في ذكرهم معه لأنّ المستنبط أعم مطلقاً من وليّ الامر على بعض الآراء وبينهما عموم وخصوص مطلق على الباقي فلا فائدة في الارجاع على الشق الأوّل إذا كان أولوا الأمر ليس فيهم مستنبطٌ أصلاً، فلا علم حينئذٍ.

وكذا على الشق الثاني في المصاديق المختلفة كما هو ظاهر.

أمّا على قول الاختلاف فالإرجاعُ فائدتُهُ ظاهرةٌ وبيّنةٌ؛ لانّ من اساس التشريع الرسول وأولي الأمر فالارجاعُ اليهم في الاستنباط عمليةٌ مطلوبة على كلّ حال.

خاصّةً مع اعتضاد ما ذكرنا بورود بيان اولي الأمر بالمعصومين عليهم السلام على ما روى صاحبُ مجمع البيان الشيخ الطبرسي رحمه الله عن أبي جعفر عليه السلام كما روى عنه وعن أبي عبدالله عليه السلام أنّ فضل الله ورحمته النبيّ وعلي؛ من هذا يظهر بانّه لا وجه لما قاله رحمه الله انّ ضمير (منهم) في قوله تعالى: ﴿لعلمَهُ الذين يستنبطونه منهم﴾ يعود الى أولي الأمر على الاظهر[٢].

---

(١) الآية: ٤،٥ سورة النجم ـ ٥٣ ـ.

(٢) راجع مجمع البيان في تفسير القرآن / الشيخ الطبرسي رحمه الله في تفسير نفس الآية المباركة / ج٢ / ص٨٢ ط. دار التراث العربي ـ بيروت.

وقال تعالى: ﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى﴾[١].

فاجرُ الرسالة هو المودة في القربى ... بناءاً على ما بيّن سبحانه وتعالى في موضع آخر من كتابه موضّحاً إذ قال عزّ من قائل: ﴿قل ما سألتكم من اجرٍ فهو لكم﴾[٢].

إذ نفع مودتهم كما هي مودة رسوله ﷺ راجعٌ إليهم.

ثُمّ يقول سبحانهُ ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر الاّ مَن شاء ان يتّخذَ الى ربّه سبيلاً﴾[٣].

فالّذي يريد ان يتّخذ الى ربه سبيلاً يسأله الرسول الكريم ﷺ الأجر...

وما هو الأجر؟!

الأجر هو مودةُ أهل بيته عليهم السلام وهي التي نفعها بطبيعة الحال ترجع لِمَن أراد أن يتّخذ السبيل كما هي مودةُ رسوله ﷺ وهذا أوضح من أن يوضّح.

فعليه تكون الإمامة الامتداد الحقيقي والطبيعي للنبوّة وخاصّة لكون رسالتنا الاسلام خاتمة الرسالات ولانّ رسولنا خاتمُ الرسل ولكلّ قوم هاد. وعن الرضا عليه السلام في حديث، فإن قال قائل: فَلِمَ جَعَلَ اولي الأمر وأَمَرَ بطاعتهم؟

قيل: لعلل كثيرة:

منها: أن الخلق لمّآ وقفوا على حد محدود وأمروا ألاّ يتعدّوا ذلك الحدّ، لما فيه من فسادهم، لم يكن يثبت ذلك ولا يقوم الاّ بان يجعل عليهم اميناً بأخذهم

(١) الآية: ٢٤ سورة الشورى ـ ٤٢ ـ.

(٢) الآية: ٤٨ سورة سبأ ـ ٣٤ ـ.

(٣) الآية: ٥٨ سورة الفرقان ـ ٢٥ ـ.

بالوقت عند ما ابيح لهم ويمنعهم من التعدّي والدخول فيما حظر عليهم، قيّماً يمنعهم من الفساد، ويقيم فيهم الحدود والأحكام.

ومنها: إنّا لانجد فرقة من الفرق ولا ملّة من الملل بقوا وعاشوا، إلاّ بقيّم ورئيس لما لابدّ لهم منه في أمر الدين والدنيا فلم يجز في حكمه الحكيم ان يترك الخلق ممّآ يعلم انّه لابدّ لهم منه، ولا قوام لهم الاّ به فيقاتلون به عدوّهم ويقسّمون به فيئهم، ويقيم لهم جمعتهم وجماعتهم ويمنع ظالمهم من مظلومهم.

ومنها: إنّهُ لو لم يجعل لهم اماماً قيّماً، أميناً حافظاً، مستودعاً لدرست الملة وذهب الدين، وغيّرت السنة والأحكام، ولزاد فيه المبتدعون، ونقص منه الملحدون، وشبّهوا ذلك على المسلمين، لانّا قد وجدنا الخلق منقوصين، محتاجين غير كاملين، مع اختلافهم واختلاف أهوائهم وتشتّت أنحائهم، فلو لم يجعل قيّماً، حافظاً، لما جائه الرسول ﷺ لفسدوا على نحو ما بينا وغيّرت الشرائع والسنن والأحكام والايمان وكان في ذلك فساد الخلق أجمعين)[١].

---

(١) نوادر الاخبار ما يتعلق باصول الدين / الفيض الكاشاني كتاب النبوة والامامة / باب الاحتياج الى النبي والامام / حديث ٥.

إتّضح لنا الأساس الخامس

القيامة

﴿والوزن يومئذٍ الحقُّ فمَن ثَقُلت موازينُهُ فاولئك هُمُ المفلحون * ومَن خَفَّت موازينه فاولئك الذين خسروا انفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون﴾[١].

وما شاء الله من الآيات وتعالى ذلك الاّ: ﴿ليُهلك مَن هَلَكَ عن بيّنةٍ ويحيى مَن حَيَّ عَن بيّنة﴾[٢] ﴿ليميّز الله الخبيث من الطيّب ويجعل الخبيث بعضهُ على بعضٍ فيركمه جميعاً فيجعله في جهنّم...﴾[٣].

وَمِنْ هذا كلّه يتبيّن لنا انّ المحور الأوّل والحقيقي هو المثل الأعلى، كما سنرى.

---

(١) الآيات: ٩، ١٠ سورة الاعراف ـ ٧ ـ.

(٢) الآية: ٤٣ سورة الانفال ـ ٨ ـ.

(٣) الآية: ٣٨ سورة الانفال ـ ٨ ـ.

المحور الأوّل وهو المحور الحقيقي

المَثَلُ الأعلى

قال الشهيد الصدر ﷺ:

«وهذا المثل الأعلى الحقيقي حينما تتبنّاه المسيرة البشرية وتوفق بينها وبين واقعها الطبيعي وبين وعيها سوف يحدث تغيير كمي وكيفي، فالكمي هو انفتاح التطور على مصراعيه باستمرار والكيفي هو التغيير»[١].

وبهذا يحدث الدفع التاريخي نحو الأفضل، ويكون تاريخ الأمة تاريخاً مجيداً.

أي بمعنى آخر عندما تتبنى المسيرة البشرية تلك الركائز الحقيقية والدعامات الواضحة لبناء الخط الواقعي لها، وموقعها كقوة لها تأثيرها، ولها خليفتها الواضحة عن نشأة الانسان وهدفه، ستوجّه الطاقات والقدرات لما هو الخير والحق، فالهدف هو الله سبحانه سواء كان الفرد هو العامل، أم العامل العشيرة أو المجتمع، سواء كان العمل زراعيّاً أم صناعياً وسواء كان البلد أسيوياً أفريقياً...

وعندما يتوحد الهدف، والهدف يكون حقيقة لاسراب فيه، تجتمع الجهود وتظهر النتائج إيجابيّة، فتندفع الأمة، كلّ الأمة نحو الحق، فيكون الكلّ في سعادة وهناء.

وحينئذٍ يظهر لنا البيان المرصوص على حقيقته، والجسد الواحد على

---

(١) محاضرات الشهيد الصدر ﷺ في مسجد الشيخ الطوسي ﷺ في النجف الأشرف سنة ١٣٩٩ هـ ق.

طبيعته إذا تداعى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

ولاتتوزع الطاقات فتتعارض وتتبدّد بإفناء أحدهما الآخر.

ويكون حينئذٍ العمل دقيقاً ينبعث من الشعور بالمسؤولية من داخل الإنسان نفسه ولا نحتاج بذلك الى جيش مراقب، أو معدّات معقدة لعدّ الأنفاس، وكتمها إذا تجاوز العدّ الحد.

«وبتقرير آخر أدق وأونق لما يعطيه القرآن من حقيقة الدّين القيّم، إنّ الإنسان حقيقة كونية مرتبطة في وجودها بالكون بالعام، وله في نوعيته غاية هي سعادته وقد خطّ له طريق الى سعادته وكماله ينالها بطيء الطريق المنصوب اليها نظير غيره من الأنواع الموجودة، وقد جهّزهُ الكون العام وخلقته الخاصّة به من القوى والآيات بما يناسب سعادته والطريق المنصوب إليها وهي «الاعتقاد والعمل» اللذان ينتهيان به الى سعادته.

فالطريق التي تنتهي بالانسان الى سعادته أعني الاعتقادات والأعمال الخاصة بينه وبين سعادته وهي التي تسمّى الدين وسنّة الحياة حسب اقتضاء النظام العام الكوني، والنظام الخاص الإنساني والذي نسمّيه الفطرة، وتابعة لذلك، وهذا هو الذي يشير اليه بقوله: **﴿فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم﴾**.

فسنّة الحياة التي تنتهي بسالكها الى السعادة الانسانية طريقة متعينة يقتضيها النظام بالحق ويكشف عنها تجهيزات وجوده بالحقّ، وهذا الحق هو القوانين الثانية غير المتغيرة التي تحكم في النظام الانساني وتدبيره، وتسوقه الى غاياته وهو الذي قضى به الله سبحانه فكان حقّاً مقضيّاً»[١].

---

(١) الميزان / السيد الطباطبائي / ج١٨ / ص٤٦ ـ ٤٧.

المحور الثاني:

المُثُلُ السُّفلى

والّتي هي عبارة عن المحور النقيض وعبّرنا هناك بالمفرد لأنّهُ واحدٌ وامّا هنا فعبّرنا بالجمع لانّه يكون لكلّ مجموعةٍ مَثَلٌ معيّنٌ مجموعها هو النقيض المشترك للمحور الاوّل، وقد سمّى القرآن المجموع بـ(مَثلُ السّوء).

﴿الّذين لايؤمنون بالآخرة مَثَلُ السّوءِ وَللهِ المَثلُ الأعلى وهو العزيز الحكيم﴾[١].

وكلُّ ما تقدم يوضّح لنا مقومات هذه المُثل بجلاء...

والاساس المشترك فيها أنّها من صنع الإنسان نفسه.

ولايظهر الحقّ لذي بصيرةٍ فضلاً عن ذي بصر.

وقد يُنشِأ الإنسانُ بما مُنِحَ من قابليات وقدرات قوانين ونظم، منها ما يكون فيه بعض الخطوط غير الواضحة مِنَ الحقّ بما أعطي من قوّةٍ عاقلةٍ وفطرةٍ نقيّة لايمكنُ التخلص منها كلّياً، فيظنّ البسطاء مَن الناس بانّه الحقّ قد ظهر على أيدي هؤلاء.

وليس تلك النقاط الباهتة في ذلك الظلام الدامس حقّاً محضاً بعد أن شُوّهتْ، ومع هذا يرى الانسان لونها وطعمها؛ فكيف به إذا رأى الحقّ

---

(١) الآية: ٦١ سورة النحل ـ ١٦ ـ.

نفسه وعاشه؟!!

المهمُّ مِنْ هذا كلّه:

إنّ القوانين والنظمُ تتشعّب بحسب مصالح مَن يكتب، بل حتّى يبلغ ببعضهم أنْ يراها لاقيمة لها لانّها مجرّد سوادٍ من جرّ قلم على ورقةٍ بيضاء[١]، وحتّى لو جعل الكاتبُ ما يكتبه يشمله فإنّ لهُ فيه مخرجاً يلجأ اليه في حال الخذلان، والمصلحة...

ولاتبقى القيّم الاّ وهمٌ جعلوا لهُ إسماً، وأخذوا يحوكون حوله ما يشتهون وما الامر وراء الاسماء إلاّ زيدٌ وسراب لاقيمة له.

لِذا نَبّهَ على ذلك القرآنُ الكريم فقال:

﴿إنّ هيَ إلاّ أسماءٌ سمّيتموها أنتم وآباؤكم ما انزل الله بها من سلطان..﴾[٢].

وسواءٌ كانت هذه منبثقةٌ عن الآلات والمكائن، أو عن أيّ سببٍ آخر، فهي متغيرةٌ ولايمكن لها أن تستقر...

وَلْيلْتفت الى انّ ذلك ليس من محسناتها بل هي من خناجرها التي تُقتلُ بها وتنتحر، إذْ لا إستقرار لنظام أو تشريع الاّ بمقدار الحاجة، لا حاجة المجتمع كما لايخفى على مَن عاش في ظلّ هذه النظم بل هي حاجة زيدٍ أو عمرو سواء كان (زيد) أو (عمرو) فرداً أم مجموعة.

ويسيطر على الانسان فرعونُ وجماعتُهُ وأهلُ بيتهم وتختنق الاصوات الأخر.

---

(١) كما عبّر ذلك أحد رؤساء العرب بانّ القانون ماهو؟ ما هو إلاّ عبارة عن جرّةِ قلم.

(٢) الآية: ٢٤ سورة النجم ـ ٥٣ ـ.

وفرعون هذا قد يكون فرداً كما هو الغالب، أو يكون جماعةً، أو حزباً أو حتّى امّةً بكاملها إذا رضيتْ بفعله وعمله.

ويمكن أن الشهيد الصدر ﵀ قد أشار الى ذلك بقوله:

(تلك المُثُل لاتصنع الشعور المسؤولي. قد تصنع أخلاقاً ولكنّها غطاء ظاهري وكلّما وجد مجالاً للتحلل فسوف يتحلّل)[١].

فئآتُ مجتمعِ مُثُلِ السوء:

الفئة الأولى:

وتظهر فئاتٌ كثيرة من الناس لم تظهر في المجتمع الأول وعلى رأسهم يكون **الطاغوت:**

وهو مَن يحبّ بعضهم أن يطلقَ عليه اسم فرعون.

الفئة الثانية: في هذا المجتمع المترفون

اولئك الّذين يريدون أن يستمر المجتمع على ما هو عليه لاجل مصّ جهوده وإنتاجه، ليعيشوا من كدح الغير وشقائه، وقد اشار اليهم القرآن الكريم في مواضع كثيرة وبيّن مواجهتهم وعنادَهُم... **﴿وما أرسلنا في قريةٍ مِن نذير الاّ قال مترفوها إنّا بما ارسلتُم به كافرون﴾**[٢].

واغلبهُم هُمُ الّذين يحرّكون الطاغوت بحسب ما يشتهون...

﴿وقال الملأُ مِن قوم فرعونَ أتذرُ موسى وقومَهُ ليُفسدوا في الأرض

---

(١) المحاضرات للشهيد الصدر ﵀ / النجف الأشرف.

(٢) الآية: ٢٥ سورة سبأ ـ ٣٤ ـ.

ويذرك والِهَتَكَ﴾[١].

ذكروا ذلك: إمّا تملّقاً منهم لفرعون لمّا رأوه منزعجاً من موسى وقومه، أو خوفاً على مصالِحِهم من انّ فرعون قد نسى ذلك وألهتهُ الحياةُ فتذهب مصالحهم إدراج الريح، فقد نبّوه لكي يتمادى بالشر ويرجع الى طغيانه، ولذا نراهُ أنّهُ بعد أن شاهدَ هذا التأييد الذي كان إما منتظراً لِعِلّتينِ على سبيل مانعة الخلو ١ـ لكي يضرب ضربته ٢ـ ليكتشف اعوان؛ أو ايقضوهُ به من سباتِهِ بعد أن كان في سِنَةِ الغفلة ﴿قال سَنُقَتِّلُ ابناءَهُم ونستحيي نساءَهم وإنّا فوقَهُم قاهرون﴾[٢]. وهذا ما يريدونهُ هُم بالضّبط.

الفئة الثالثة: الهَمَجُ الرّعاع:

على ما سمّاهُم به أمير المؤمنين عليه السلام[٣]، وقد أشار اليهمُ القرآنُ الكريم بقوله: ﴿فقالَ الضّعفاءُ للّذين استكبروا إنّا كنّا لكم تبعاً...﴾[٤]. وقال تعالى: ﴿وإذ يتحاجّون في النار فيقول الضعفاء للّذين استكبروا إنّا كنا لكم تَبعاً فهل أنتم مغنون

---

(١) الآية: ١٢٨ سورة الاعراف ـ ٧ ـ.

(٢) الآية: ١٢٨ سورة الاعراف ـ ٧ ـ.

(٣) عن كميل بن زياد رحمه الله قال: خرج إليّ عليّ بن أبي طالب عليه السلام فاخذ بيدي واخرجني الى الجبّانة وجلس وجلست ثمّ رفَعَ رأسهُ اليّ فقال يا كميل إحفظ عنّي ما أقول لك الناسُ ثلاثة عالمٌ ربّاني ومتعلّمٌ على سبيل نجاة، وهَمَجٌ رعاعٌ اتباعُ كلّ ناعق يميلون مع كلّ ريح لم يستضيئوا بنورِ العلم فيهتدوا ولم يلجئوا الى ركنٍ وثيق».

سيفنة البحار / ج٢ / ص٤٤. الشيخ عباس القمي.

وإن كان هذا التقسيم يختلف عن التقسيم الذي ذكرناه من ناحية الجهة إلاّ أنّ اغلب القسمين الاولين يكونون في المستضعفين واغلب القسم الثالث ما ذكرنا فلايلزم التداخل.

(٤) الآية: ٢٢ سورة ابراهيم ـ ١٤ ـ.

عنّا نصيباً من النار﴾[١].

وهؤلاء هُم غير المستضعفين الذين ذكرناهُم كفئةٍ رابعةٍ كما هو ظاهر.

الفئة الرابعة: المُستضعفونَ في الأرض:

أمثال هارون حينما تركهُ قومُ موسى وأرادوا أن يقتلوه لمّا أمرهُم بالابتعاد عن عبادة العجل الذي اضلّهُم السامري به لمّا ذهب موسى لمناجاة ربّه؛ ولذا عند ما رجع ووجدهم يعبدونهُ من دون الله أخذ برأس أخيه يجرُّه اليه قال له: ﴿إنّ القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني..﴾ وهو من هؤلاء المستضعفين الذين ظهروا في قوله تعالى: ﴿قال الملأُ الذين استكبروا من قومه للّذين استضعفوا لِمَن آمَنَ منهم اتعلمون أنّ صالحاً مُرسَلٌ مِن ربّه..﴾[٢].

فهؤلاء كما هو الظاهر ليسوا بتابعي المستكبرين مع قوتهم وضعفهم إذ هُم اقوياءُ في عقيدتهم ومبدئهم ولكن لا قوّة لهم يواجهون بها قوّة المستكبرين وطغيانهم...

وقد يكون هناك فئاتٌ أخر تظهر وتختفي في أحيان متعدّدة إلاّ أنّ الاغلب ماذكرنا...

وحتى أُولئك الّذين يكونون حول الطاغوت ينقسمون كذلك..

وقد اشار الصادق عليه السلام الى ذلك فقال: (وجدنا بطانة السلطان ثلاثة طبقات: طبقة موافقة للخير وهي بركةٌ عليها وعلى السلطان وعلى الرعيّة، وطبقة غايتها المحاباة على ما في أيديها فتلك لا محمودة ولا مذمومة بل هي الى الذمّ أقرَب،

---

(١) الآية: ٤٨ سورة غافر ـ ٤٠ ـ.

(٢) الآية: ٤ سورة الاعراف ـ ٧ ـ.

وطبقة موافِقَة للشرّ وهي مشؤمةٌ ومذمومةٌ عليها وعلى السطان)[١].

والطبقة الاولى: كأمثال مؤمن آل فرعون:

وموقفه يظهر واضحاً في عدّة سورٍ من القرآن الكريم ونحن نذكر هنا توضيحاً بعض ما جاء عنه في سورة المؤمن بعد أن قال فرعون ذروني اقتلْ موسى...

﴿وقالَ رجلٌ مؤمن من آل فرعون يكتُمُ ايمانه أتقتلونَ رجلاً أن يقولَ ربّي الله...﴾[٢].

وهذا القسم داخلٌ في فئة المستضعفين كما هو بيّنٌ، لانّه يعيش تقيةً مع السلطان ولايستطيع اظهار ما يضمر من حقّ ويطبق من عدل. (الى آخر ما قالهُ في دفاعه عن نبيّ الله).

والطبقة الثانية: لايظهر لها وجه أو يد في تغيير الأحداث، بل هي انتفاعية منتظرة وطفيلية غير مؤثّرة وربما لما ذكرنا لايظهر لها عين في الآيات القرآنية الكريمة.

الطبقة الثالثة: تتمثّل في أعوانِ فرعون وجنوده.

﴿واستكبر هو وجنودُهُ في الأرض بغير الحق وظنّو ا أنّهم إلينا لايُرجَعون﴾[٣].

وهم الّذين اشرنا اليهم في الفئة الثانية من المجتمع عند قوله تعالى:

﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومَهُ ليُفسِدوا في الأرض

---

(١) تحف العقول عن آل الرسول / ص٢٢٦.

(٢) الآية: ٢٩٦ سورة المؤمن ـ ٤٠ ـ.

(٣) الآية: ٤٠ سورة القصص ـ ٢٨ ـ.

ويذرك والهتك﴾[١].

المهمّ إنّ الناس يكونون شيعاً واحزاباً لأنّ هَمّ فرعون يكونُ كذلك ﴿إنّ فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً﴾[٢].

ونتذكّر كلّنا جيّداً ما اعتمدت عليه الادارة البريطانية أو غيرها في أوقات الاستعمار وساعاته مع القاعدة المشهورة (فرّق تَسُدْ).

ولا يكونون مستمرين على هذا الحال الاّ بقطع العلم عنهم ولو الى حين، أو بتعليمهم ما يستفيد هو به فقط، وهُم راضون بما تعلّموهُ. ويُعلّموه معتبرين انفسهم علماء ومثقّفين وهُم لُقمةُ الجائع ونهبة الطامع يمصُّهم ويلفظهُم... وهكذا تسير العجلة وهم غافلون لا يعلمون ما يرادُ بهم، وإذا علموا فبعد فوات الاوان ولات حين مناص... كما نشاهد ذلك كثيراً فيصبحون كالآلات والمكائن، وبذلك يصبح المجتمع همجاً رعاعاً وان كانوا يستنكفون من هذه التسمية لأنّهم يلبسون (الشورتات) ويأكلون (المُعَلّبات)...

وبهذا لاتكون المسؤولية واضحةً، ولاهدف كذلك الاّ سرابٌ يظهر هنا وهناك فيحسبه الظمآنُ ماءاً واذا وصل اليه لم يجدهُ شيئاً....

وبذلك تظهر الفجوةُ في داخل الإنسان وتتوسّع؛ ومردها ذلك التركيب العجيب للانسان فيصنع آلهةً ويعبد آخر ولا مجازاة.

وما دام السلطان قائماً على رأسه يمشي على قدميه واذا اختفى مشى على رأسه...

فَتَتَشَتَّت المسيرةُ البشريةُ وتضعف.

---

(١) الآية: ١٢٨ سورة الاعراف ـ ٧ ـ.

(٢) الآية: ٥٦ سورة القصص ـ ٢٨ ـ.

ويمكن أن نصوّرها بصورةٍ أوضح:

الإنسان من جهة الجدل القائم في داخله بين الروح والطين، والصراع القائم بين الفضيلة والرذيلة بين العقل والنفس، بين السمو والخلود الى الارض هذا الفرد الانساني يعيش في صراعات هنا، وفي جهة اخرى يعيش صراعات أُخر...

فهذا إبليس قد هيّأ لهُ جنده ورِجلهُ وعساكره لينتقم منه، ويبين خيبته...

﴿إنّ الشيطان للانسان عدوٌ مبيناً﴾[1].

﴿إنّ الشيطان للانسان عدوٌ مبين﴾[2].

﴿ويريد الشيطانُ أن يضلّهُم ضلالاً بعيداً﴾[3].

أساليب دعوة الشيطان:

ومِن أساليب دعوته:

١ـ تزيين الأعمال القبيحة لكي تظهر بمظهرٍ حَسَنٍ:

﴿وَزيّنَ لهم الشيطانُ أعمالهُم فصَدّهُم عَنِ السّبيل﴾[4].

وقال تعالى: ﴿تالله لقد أرسلنا الى أُمم مِن قبلك فَزيّن لهُمُ الشيطانُ أعمالَهُم﴾[5].

ولانريد أنْ نتعرّضَ لمصداقٍ من مصاديقه فما اكثرها...

---

(١) الآية: ٥٤ سورة الاسراء ـ ١٧ ـ

(٢) الآية: ٦ سورة يوسف ـ ١٢ ـ.

(٣) الآية: ٦١ سورة النساء ـ ٤ ـ.

(٤) الآية: ٢٥ سورة النّمل ـ ٢٧ ـ.

(٥) الآية: ٦٤ سورة النحل.

وكيفية التزيين تتمّ كلٌّ بحسبه ويظهر بعض خطوطه بما يأتي من النقاط الآخر.

وحتّى انّهُ قد يأتي للمؤمن عن طريق ما يعتقِده حَسناً ويدخل اليه منه لكي يحرفهُ عن طريقه من حيث يحبّ كما في المثال الأوّل لهذا الابتلاء.

﴿فوَسوسَ لهما الشيطانُ ليبدي لهُما ما وُري عنهما من سواتهما وقال ما نهاكما ربُّكُما عن هذه الشجرة الاّ ان تكونا مَلَكين أو تكونا من الخالدين * وقاسمهما إنّي لكما لَمِنَ الناصحين * فدلاّهما بغرور...﴾[١]، وبهذا دفعهما بإظهار النّصح مع انّهُ كان مبطناً للغش والخداع ولم يكن آدم عليه السلام يتصوّر انّ هناك مَن يقسم بالله كاذباً كما صرّحت بذلك عدّة روايات عن أهل البيت عليهم السلام لم يطلب الخلود لاجل الجلود وما طلب ان يكون ملكاً لاجل ان يكون كذلك وخاصّةً بعد أن رأى سجود كلّ الملائكة لهُ عند خلقه وتفضيله عليهم بمعرفته تلك الاسماء التي لم يعلموها من هنا يعلم بانّه طلب ذلك لاجل امرٍ آخر يمكن أن تكون قد اشارت اليه روايةٌ وجدتها يوماً على ما في ذهني، ولكن مع الاسف لم اجدها الآن مفادها انّه عليه السلام اراد الخلود أو اراد أن يكون ملكاً لاجل الاستمرار والخلود في عبادة الله سبحانهُ ومَن هنا دَخَل ابليس وقاسمهما إنّي لكما من الناصحين، فدلهما بغرور.

٢ـ محاولة أن ينسى الإنسان غرضهُ بالهائه عن هدفه بأيّ صورةٍ من الصور **﴿فانساهُ الشيطانُ ذكرَ رَبّهِ فَلَبِثَ في السجن بِضعَ سنين﴾**[٢].

﴿قال أرأيتَ إذ أوينا الى الصّخرة فانّي قد نسيتُ الحوتَ وما انسانيه الاّ

---

(١) الآيات: ٢١، ٢٢، سورة الاعراف ـ ٧ ـ.

(٢) الآية: ٤٢ سورة يوسف ـ ١٢ ـ.

الشيطانُ أن أذكره﴾[١].

وهذا قول صاحب موسى الذي خرج معه بحثاً عن العبدِ الصّالح... والقصّة مذكورةٌ مفصّلةً في هذه السورة المباركة...

٣ـ ذاك الذي ذكرناهُ ثانياً نسيانٌ عام، أي يعمُّ المؤمن والكافر، يـعمُّ كـلّ متعلّقٍ أي لايختص بشيء دون آخر من أبسط الاشياء الى أعلاها، وهـذا الذي نذكرهُ هنا قسمٌ آخر هو النسيان الخاصُّ وهو أن ينس الإنسانُ ربّهُ فيعمل بلا رادعٍ ولا احساسٍ:

﴿إستحوذ عليهم الشيطان فأنساهُم ذكرَ الله﴾[٢].

وهذا كما نراه آتٍ بعد أن يسيطر الشيطانُ على الإنسان سيطرةً تامّةً بحيث يملك حواسه وجوارحَهُ كلها وهو معنى الاستحواذ...

وهذه كلّها أساليبه...

طرق مجيء الشيطان وسيطرته:

وأمّا طريق مجيئه والسيطرة على من يأتي اليه ويستطيع أن يريهُ بذلك ما يرى فهو:

١ـ الكسب:

الذي يحصل عليه الفرد نتيجة صراعه إذا صار سلبيّاً «فإنّ السيئات يهدي بعضها الى بعض فإنّها مبنيّة على متابعة هوى النفس وهوى النفس للشيء هوى لما

---

(١) الآية: ٦٤ سورة الكهف.

(٢) الآية: سورة المجادلة ـ ٥٨ ـ.

يشاكله»[١].

ولذا جاءت الآية المباركة مبينة لذلك: ﴿**إنّما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا**﴾[٢].

«فظاهر الآية أنّ بعض ما قدّموا من الذنوب والآثام مكّن الشيطان أن يغويهم بالتوالي والفرار»[٣].

٢ـ الإنسلاخ عن آيات الله:

﴿**واتل عليه نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان...**﴾[٤].

٣ـ الظلم:

﴿**ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين في قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم وإنّ الظالمين لفي شقاقٍ بعيد**﴾[٥].

٤ـ القعود مع الظالمين:

ولذا أشار سبحانه وتعالى الى أنّ المؤمن عندما يتذكر بعد أن أنساه الشيطان وقعد مع القوم الظالمين عليه أن يبتعد عنهم ويفارقهم.

---

(١) الميزان / السيد الطباطبائي ﵀ / ج٤ ص٥٠.

(٢) الآية: ١٥٤ سورة آل عمران.

(٣) الميزان / السيد الطباطبائي / ج٤ ص٥١.

(٤) الآية: ١٧٥ سورة الاعراف.

(٥) الآية: ٥٤ سورة الحج ـ ٢٢ ـ.

﴿وإمّا ينسينّك الشيطان فلاتقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين﴾[١].

إذ أنّ بعض القعود معهم قد يجلب تنازلاتٍ معينة، يكون مردّها خطيراً، كما هو واضح جليٌّ في قوله تعالى:

﴿إنّ الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبيّن لهم الهدى الشيطان سوّل لهم وأملى لهم﴾[٢].

ولكن كيف؟!

الآية المباركة التالية لها تبيّن ذلك بوضوح: ﴿ذلك بأنهم قالوا للّذين كرهوا ما نزّل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم أسرارهم﴾[٣].

فبعد أن قعدوا وتكلّموا مع الظالمين، وتعاهدوا سرّاً على أمرٍ لا يريده الله تعالى هُيِّئَت أرضيتهم لدخول الشيطان، فدخل وسوّل لهم.

فلولا ذاك لما كان هذا.

٥ـ الابتعاد عن ذكر الله تعالى:

﴿ومن يعش عن ذكر الرحمٰن نقيّض له شيطاناً فهو له قرين﴾[٤].

«مشيراً الى أمره من أوّله وهو أن تعاميه عن ذكر الله يورثه ملازمة قرين من الشياطين فيلازمه مضلاً له حتّى يرد عذاب الآخرة معه»[٥].

٦ـ ﴿هل أنبّئكم على من تنزّل الشياطين * تنزّل على كلّ أفّاكٍ أثيم *

(١) الآية: ٦٨ سورة الأنعام.

(٢) الآية: ٢٥ سورة القصص.

(٣) الآية: ٢٦ سورة محمّد ﷺ.

(٤) الآية: ٣٦ سورة الزخرف.

(٥) الميزان / السيد الطباطبائي: ج٨ ص١٠٢ بتصرف ط. بيروت.

يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾[١].

وبمعنى جامع أنّ الابتعاد عن الله تعالى ابتعاد عن الحق، ولابدّ ان يكون في طريق الباطل، فهما نقيضان...

وَقد بَيّنَ الامام علي عليه السلام في احدى خُطبه كلّ ذلك حينما قال: «إنّما بِدءُ وقوع الفتن، أهواءٌ تتّبع، وأحكام تُبتدع، يُخالف فيها كتاب الله، ويتولى عليها رجال رجالاً، على غير دين الله فلو أنّ الباطل خلص من مزاج الحق لم يخف على المرتادين، ولو أنّ الحق خلص من لبس الباطل، انقطعت عنه ألسن المعاندين، ولكن يُؤخذ من هذا ضِغثٌ ومن هذا ضغث فيمزجان... فهنالك يستولي الشيطان على أوليائه»[٢].

وَإذا ما ضَعُفَ عن الوصلِ الى مراده باغوائه حرّك جندهُ وأولياءَهُ مِن الناس وغيرهم[٣] عسى أن يصنعوا الثغر الذي ينطلق منه الى داخل الإنسان المؤمن لِهدمِهِ.

﴿وَإنّ الشياطين ليوحونّ الى أوليائهم ليجادلوكم﴾[٤].

وهذه احدى الطرق التي سلكها القرآن الكريم في بناء القوّة الرادعة لهذا الجانب الخطر في المجتمع الانساني.

والأسلوب والطريقة تختلف.

---

(١) الآيات: ٢٢٢، ٢٢٤ سورة الشعراء.

(٢) نهج البلاغة / شرح محمّد عبده / ص١٠٨.

(٣) اولئك الذين أشار اليهم أمير المؤمنين عليه السلام في قوله:

اتخذوا ـ الشيطان لامرهم ملاكاً، واتخذهم لهُ إشراكاً.

فباض وفرّخ في صدورهم، ودبّ ودرج في حُجورهم، فنظر باعينهم ونطق بألسنتهم...

نهج البلاغة / شرح محمد عبده / ص٤٧.

(٤) الآية: ١٢٢ سورة الأنعام.

أساليب بناء القوّة الرادعة عن الجانب السلبي

يمكن اجمالها استقراءاً بما يلي:

الاسلوب الأول: بيان اللّبنة الاولى التي بنى عليها بنيانهُ ألا وهي استكبارُهُ وعنادُهُ مِن أن يسجد لآدم وهو الإنسانُ الاول، والتركيز على انّه قادرٌ على إفشال هذا الذي فُضِّلَ عليه ليتنبه الإنسانُ الى سوء سريرته ونيّته وخبثه فيبتعد عنه ويحاربه. وهذا ما تكفّل به القرآن الكريم في مواضع كثيرةٍ منه. وقد تعرّضنا لذلك في اول حديثنا عن خلق الإنسان وحياته.

الاسلوب الثاني: توضيح قصدِهِ الحقيقي، والتنبيه الى أنّ ما يوعِدُ اولياءَهُ به ويمنّيهم ما هو إلاّ الفقر بعينه، وانّ الذي يأمر به ما هو الاّ الفحشاء، وما يأخذ بهم إلاّ الى العداوة والبغضاء.

﴿الشيطانُ يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء﴾[1].

﴿ومن يتّبع خطوات الشيطان فانّهُ يأمر بالفحشاء والمنكر﴾[2].

﴿انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء﴾[3].

---

(١) الآية: ٢٦٩ سورة البقرة ـ ٢ ـ.

(٢) الآية: ٢٢ سورة النور ـ ٢٤ ـ.

(٣) الآية: ٩١ سورة المائدة ـ ٥ ـ.

الأسلوب الثالث: بيان حال من استحوذ عليه الشيطان لكي يبتعد عنه ويرتدع به، ولايكون حالهُ ﴿كالّذي استهوته الشياطين في الارض حيران﴾[(١)].

الاسلوب الرابع: بيان خذلانه لهم وقت حاجتهم، وبيان سرّ ذلك لكونه ضعيفاً.

﴿وكان الشيطانُ للانسان خذولاً﴾[(٢)].

﴿وقال الشيطان لَمّا قُضي الامرُ انّ الله وعدكم وعد الحقّ ووعدتكم فاخلفتكم وماكان لي عليكم من سلطان الاّ أنّي دعوتكم فاستجبتُم لي فلاتلوموني ولوموا أنفسكم ما انا بمُصرخِكُم وما أنتم بمصرخي إنِّي كفرتُ بما اشركتموني مِن قبل..﴾[(٣)].

الاسلوب الخامس: الوعيد على متابعته ومشايعته:

﴿فَكُبكِبوا فيها هُم والغاوون * وجنود ابليس اجمعون﴾[(٤)].

وذكر سبحانه وتعالى خطابهُ لابليس عندما طرده مِن رحمته: ﴿قالَ اخرج منها مذؤماً مذحوراً لَمَنِ اتّبعك منهم لأملأنّ جهنّم منكُم أجمعين﴾[(٥)].

الاسلوب السادس: بيان وتوضيح اماكن وجوده ونفوذه، ولذا حَرّم الله سبحانه ما حرّم ليخرّب بذلك بيوتهُ واعشاشه:

﴿انّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر

---

(١) الآية: ٧١ سورة الانعام ـ ٦ ـ.

(٢) الآية: ٣٠ سورة الفرقان ـ ٢٥ ـ.

(٣) الآية: ٢٣ سورة ابراهيم ـ ١٤ ـ.

(٤) الآيات: ٩٥، ٩٦ سورة الشعراء ـ ٢٦ ـ.

(٥) الآية: ١٠٩ سورة الاعراف ـ ٧ ـ.

والميسر﴾[١].

والاسلوب الأخير: بيان مناطق خذلانه وانكماشه ولذا اوجب ما اوجب وحبّب ما حبّب.

مع توضيحاته بأنه لاسلطان له على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكّلون إذ قال تعالى: ﴿إنه ليس له سلطانٌ على الذين آمنوا وعلى ربّهم يتوكّلون * إنّما سلطانه على الّذين يتولونهُ والذين هم به مشركون﴾[٢].

وقال تعالى: ﴿إنّ عِبادي ليس لك عليهم سلطانٌ إلاّ من اتّبعك من الغاوين﴾[٣].

والجامع في أغلب الاحيان لاظهار ما مرّ من أساليب يتضح ويظهر جليّاً في السرد القصصي القرآني لما مرّ ليعتبر مَن يعتبر ﴿من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين اخوتي﴾[٤].

ومنه ما يكونُ عليه الامر يوم القيامة لِلإلتفات في هذه الدّنيا للاعتبار بمن مرّ فيها...

﴿ألمْ اعهد اليكم يابني آدم الاّ تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوٌ مبين وأن اعبدوني هذا صراطٌ مستقيم * ولقد اضلّ منكم جِبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾[٥].

---

(١) الآية: ٩١ سورة المائدة.

(٢) الآيات: ١٠٠، ١٠١ سورة النحل ـ ١٦ ـ.

(٣) الآية: ٤٢ سورة الحجر ـ ١٥ ـ.

(٤) الآية: ١٠١ سورة يوسف.

(٥) الآيات: ٦٢، ٦٣ سورة يس ـ ٣٦ ـ.

طرق الوقاية:

وأما طرق الوقاية منه فتأتي مِن الالتجاء الى الله وتعالى وتطبيق تعاليمه وإرشاداته، والابتعاد عن أماكن الضّعف التي يدخل منها، وتقوية جوانب الضعف فينا وتتمثل هذه الطرق بما يلي:

١ـ رؤية أن ما يأمر به هو الفحشاء والمنكر، وترسيخ معنى رفضنا لهما بشتّى صورهما في نفوسنا، وتوضيح خذلانه وضعفه، وانّ متبعه يصبح حيران تائهاً كما مرّ ذلك علينا في جملةٍ من الآيات المباركة السابقة.

٢ـ الخوف من الله سبحانهُ وتعالى، إذ اتّباعه اتباع لعدوٍ بغيضٍ مطرودٍ من رحمة الله الواسعة، فما اتسعه واتعس متبعه.

﴿وكان الشيطانُ لربّه كفوراً﴾[١].

وتنمية الاحساس بانّ الله مع كلّ فردٍ في كل وقت ومكان ﴿ونَعلمُ ما توسوس به نفسه ونحن أقرب اليه من حبل الوريد﴾[٢]. وبذلك يحدث الامرُ الثالث: وهو استمداد القوّة منه تعالى لمواجهة ما يطرأ علينا ﴿وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير﴾[٣].

٤ـ الاعتبار بمن مضي... ومن جملة ما ذكر القرآن الكريم بصدد هذا الأمر ﴿وإذ زيّن لهُمُ الشيطانُ اعمالهم وقال لا غالبَ لكم اليوم من الناس وانّي جارٌ لكم فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال انّي بريءٌ منكم اني ارى مالا ترونَ

---

(١) الآية: ٢٧ سورة الاسراء.

(٢) الآية: ١٧ سورة ق ـ ٥٠ ـ.

(٣) الآية: ٥ سورة الحديد ـ ٥٧ ـ.

اني اخاف الله والله شديد العقاب﴾[١].

٥ـ الابتعاد عن أماكن تواجده بالانتهاء عمّا نهى اللهُ عنه.

٦ـ اللجوء بما يُتحصّنُ به منه باتّباع ما امر الله به أن يوصل.

٧ـ الاستعاذة بالله منه: **﴿وامّا ينزغنّكَ من الشيطان نزغٌ فاستعذ بالله﴾**[٢].

ومن جملة ما نقله القرآن عمّن مدحهم تعوذ امرأةِ عمران

﴿وإذ قالت امرأةُ عمران ربّ اني نذرت لك ما في بطني محرّراً فتقبّل مني انك انت السميعُ العليم فلمّا وضعتها قالت ربّي إني وضعتها أنثىَ والله أعلم بـما وضعت وليس الذكر كالأنثى واني سمّيتها مريم وانّي أعيذها بك وذريّـتها مِـن الشيطان الرجيم﴾[٣].

* * *

---

(١) الآية: ٤٩ سورة الانفال.

(٢) الآية: ٢٠١ سورة الاعراف.

(٣) الآيات: ٣٦، ٣٧ سورة آل عمران ـ ٢ ـ.

الفرق بين المثل الأعلى ومثل السوء

وممّا ذُكِرَ يظهر الفرقُ جليّاً بين المثل الأعلى ومثل السوء ففي الاولى.

الميزة الاولى: تحول الناس الى متعلمين...

الميزة الثانية: المسؤولية فيها واضحة، فمِن مسؤول الى سائل، فيكون الشعور بالمسؤولية متكاملاً، ومن هنا سوف تتضيق فئة الهمج الرعاع الذين ينفقون مع كلّ ناعق.

الميزة الثالثة لها: أنها ليست من صنع بشري، بل مصنوعة مِمّن اتقن الكون واكمله... فتحدث الموازنة بين الإنسان والكون بصورةٍ دقيقة لانّهُ جزءٌ منه.

الرابعة: وبما أنها كذلك فهي التي تعالج التناقض الموجود في داخل الإنسان نفسه المتولد من حفنة التراب ونفخة الروح كذلك.

الخامسة: اخلاقها ثابتةٌ واضحةٌ.

السادسة: الإنسانُ معها يتعامل مع ربّه الذي يشعر به، وهو معه أينما كان، ولذا المراقبة على اعمالِهِ وحتّى خطراته النفسية ستكون من داخله، فلايحتاج كلّ فردٍ الى شرطي، والى اجهزة مراقبة لاحصاء تحركاتِهِ إذ هو يقوم بمحاسبة نفسه بنفسه، فتختفي الجريمة في المجتمع أو تكاد.

السابعة: انّها تملك الطاقة الكافية للدفع وهو يوم القيامة.

الثامنة: فضلاً عن هذا كلّه إنّ الإنسان يعيش في استقرار وراحة ويرى ثمرة

عمله في الدنيا قبل الآخرة في كثير من الأحيان، وهذا ما نحاول أن نظهرهُ في هذه الأوراق، ويمكن ان يكونَ هذا داخلاً في الأولى.

وامّا تلك: **فالاولى فيها** انّهم شيعٌ وعواطف مكدّسة متشابكة الخيوط ولا أرض ثابتة ولا استقرار ومن هنا تظهر.

الميزة الثانية: وهي توسع فئة الهمجة الرعاع.

الثالثة: المسؤولية غير واضحة لأنها غير متكاملة وذلك لأنها من صنع بشري.

وهي **الميزة الرابعة**: عليها لمسات من البشر وبصماته وتأثراته، والإنسانُ لايشعر بالمسؤولية تجاه ما يصنعه هو فتكون

الميزة الخامسة لها: انّ اخلاقها معارة.

السادسة: انّها لا تملك تلك الطاقة الروحية البنّاءة لدفع الناس نحو الاحسن.

ولاوجود لشيء حقيقي يندفع نحوه الإنسان ولاشيء يدفعه فالانسان لو تجرّد من ذلك كلّه ما يمنعه من ارتكاب أي شيء... وَمَا يجبره على سلوك تلك القوانين التي قنّنها انسانٌ مثلُهُ ربّما يشدّه بدوافعه فما دامت تمشي مع مصالحه يمشي بظلها واذا اصطدمت مصالحه بها فإنّه يضربُ بها عرضَ الحائط إذا استطاع الى ذلك سبيلاً وما اكثر المفردات في مجتمعاتنا وغيرها..

فما المانع من أنْ يعتدي على عرضٍ آخر؟

وما المانع من أن يسرق آخر؟!

ويكفي التلميح عن التصريح.

وقد تكرر في القرآن الاستدلال على بطلان الوثنية بهذا البيان

﴿اسماء سميتموها انتم وآباؤكم ما أنزلَ الله بها من سلطان﴾[١].

وهو من الطف البيان وارقه، وابلغ الحجة واقطعها إذ لم يأت الانسان لِما يدعيه من دعوى بحجّةٍ برهانيةٍ لم يبق لما يدّعيه من النعت الاّ التسمية والتعبير، ومِن ابدِهِ الجهل ان يعتمد الإنسان على مثل هذا النعت الموهوم.

هذا البيان يطرّد ويجري بالتحليل في جميع الموارد التي يثق فيها الإنسان على غير الله سبحانه من الاسباب ويعطيها من الاستقلال ما يوجب تعلّق قلبه بها وطاعته لها وتقريبه منها. فانّ الله سبحانه عدّ في موارد من كلامه طاعة غيره، والركون الى من سواه عباده له.

قال تعالى: ﴿ألم اعهد اليكم يابني آدم الاّ تعبدوا الشيطان انّه لكم عدوٌ مبين وانِ اعبدوني هذا صراط مستقيم * ولقد اضلّ منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون﴾[٢][٣].

السابعة: إنّ البلاء ينزل عليهم حسب ما تقتضيه سنته التي بثّها في الكونِ وقد يلقون جزاءهم في الدنيا قبل الآخرة وهو ما سنراه في أوراق تالية إن شاء الله تعالى.

﴿وكذلك أخذُ ربّك إذا أخذَ القرى وهي ظالمة إنّ أخذَهُ أليمٌ شديدٌ﴾[٤].

هذا كلّهُ بيانٌ للمحورين النقيضين الّذين سلّطنا الضوءَ عليهما في أوّل هذا البحث.

---

(١) وردت هكذا في آيتين في كتاب الله الكريم آية ٤١ سورة يوسف ـ ١٢ ـ والآية ٢٤ سورة النجم ـ ٥٣ ـ.

(٢) الآية: ٦٢، ٦٣ سورة يٰس ـ ٣٦ ـ.

(٣) الميزان ـ ج٨ ص١٧٩.

(٤) الآية: ١٠٣ سورة هود.

وأما الهدفُ الإضطراري المشترك

فيظهر جليّاً مِنْ مسيرة الإنسان نفسه، وان تشعبت طرقه، اينما كان هذا الانسان وأيّ معتقدٍ اعتقد، والى أيّ جهة سار.

المسيرةُ البشرية نهايتها لقاء الله سبحانه وتعالى:

﴿يا أيها الإنسانُ إنّك كادحٌ الى ربّك كدحاً فملاقيه﴾[١].

(ولكنّه ليس نهايةً جغرافية)[٢] على حدّ تعبير الشهيد الصدر ﷺ بل (المراد بملاقاته انتهاؤه الى حيث لاحكم الاّ حكمه من غير ان يحجبه عن ربه حاجب)[٣] إذ هو نهاية الطريق، وهذه النهاية موجودةٌ على طول الخطّ وفي أيّ نقطةٍ منه.

﴿وَالّذين كفروا أعمالُهُم كسرابٍ بقيعةٍ يحسبُهُ الظمانُ ماءاً حتّى إذا جاءهُ لم يجدهُ شيئاً وَوَجَدَ الله عِندَهُ فوفّاهُ حسابَهُ واللهُ سريعُ الحساب﴾[٤].

ويمثّلُ الله ذلك في الجانب الايجابي من المسيرة الانسانية على لسانِ الصابرين وَإقرارهم.

---

(١) الآية: ٧ سورة الانشقاق ـ ٨٤ ـ.

(٢) المحاضرات للشهيد الصدر ﷺ / النجف الاشرف.

(٣) الميزان ـ ج٢ ص٢٤٣ / ط. ايران.

(٤) الآية: ٤٠ سورة النور ـ ٢٤ ـ.

﴿وَالّذين إذا اصابتهم مصيبةٌ قالوا إنّا لله وإنّا إليه راجعون﴾[١].

وقد أخبر عن العمومِ سبحانهُ وتعالى بقولِهِ: ﴿كُلٌّ إلينا راجعون﴾[٢].

فالكلّ لله... والكلّ اليه راجع

﴿وَلَئِن مِتمْ أو قُتِلتُم لإلى اللهِ تُحشَرون﴾[٣].

❊ ❊ ❊

---

(١) الآية: ١٥٧ سورة البقرة ـ ٢ ـ.

(٢) الآية: ٦٤ سورة الانبياء ـ ٢١ ـ.

(٣) الآية: ١٥٩ سورة آل عمران ـ ٣ ـ.



المسلك الثاني

نتائج السير وثمراتُهُ

كلُّ ما درسهُ علماء التاريخ وفلسفته لايعدو عن أسباب ظاهريّة لمجتمعات نشأت ثمّ ماتت، ولأُخر غمرت ثُمّ طافت، ويـذكرون أنّـه لهـذا السـبب نشأت الحضارة الفلانية في وادي النيل أو في وادي الرافدين، ولهذا مـاتت حـضارات عاشت قويّة... وتولّدتِ المجتمعات عن نقيضها الداخل فيها... الى كثير من الكلام الذي ذكروا واطنبوا فيه، ولكن كلُّ ما ذُكر لايعدو عن ظاهرٍ فقط وليس له امكانيةُ الغور في العمق للوصول الى الجذور الاساسية واسّ البركان الذي فُـجِّر أو اسّ البناء الذي قام...

الذي استقرّ في دلتا النيل ولّد حضارةً...

والّذي انتقل الى الصحراء جفّ وبقي يابساً...

ولكن من حقنا أن نسأل لماذا صار الجفاف؟! وعَن هذا يجب أن يُبحث.

لماذا جاء هؤلاء لدلتا النيل وغيرهُم ذهب ليموت في الجـفاف أو ليـبقى جامداً؟!

لِمَ تهَيّأت أسباب لهؤلاء دون اولئك؟!

لِمَ عند ما اقبلت بَلَت؟!

عَن هذا نبحث وعنه نسأل وسيذكرون اسباباً ليست الاّ ظاهراً لا غير...

يجب أن يُبحث عن الاسباب الاعمق للـتاريخ، الاسـباب المـمتدة فـي

الإنسان نفسه، في عمق خلافته على الأرض، في عمق روحه، وعمق الابتلاء...

الاسباب المنبعثة من نفس الإنسان، فرداً أمْ مجتمعاً...

ففي كلّ ذلك يكون البحث وعنه نُفتّش...

ولهذا اطنبنا في مطاويّ الأوراق السابقة في ابتداء خلقة الإنسان وتكوينه وحقيقة وجوده واللّبنات الاولى له، وما هي مسؤوليتنا وواقعه وموقفه الصحيح في هذا الكون العملاق.

قد نقول بما قالهُ التوبيني أو نقول بما قالهُ السرخسي أو غيرهما أو لانرتضي أيّ واحدٍ منهم اصلاً أو لدينا قولٌ آخرٌ جامعٌ بين أقوالهم... فنحن الآن لسنا بصددِ ذلك اصلاً ولذا سوف لاندخل في جدالٍ مع احد، ونترك لغيرنا هذا الميدان...

ونقول:

موتُ حضارة ونشوء أخرى...

دفن مجتمع وخضرةُ مجتمع آخرٍ عليه...

عمليةُ استبدالٍ حقيقية إلهيّةً عميقة نريد أن نستوضحها ونرسمُ خطوطاً منها في الصفحات التالية.

﴿ذلك بانّ الله لم يَكُ مغيّراً نعمةً أنعمها على قومٍ حتّى يغروا ما بأنفسِهِم وانّ الله سميعٌ عليم﴾[١].

❊ ❊ ❊

---

(١) الآية: ٥٤ سورة الانفال ـ ٨ ـ.

تمهيد

«إنّ الله تعالى جلّ اسمه يثيب بعض خلقه على طاعاتهم في الدنيا، ببعض مستحقّهم من الثواب، ولايصحّ أن يوفيهم أجورهم فيها، لما يجب من إدامة جزاء المطيعين.

وقد يعاقب بعض خلقه في الدنيا على معاصيهم فيها ببعض مستحقّهم على خلافهم له، وبجميعه أيضاً، لأنّه ليس كلّ معصية له يستحقّ عليها عذاباً دائماً كما ذكرنا في الطاعات. وقد قال الله تعالى: ﴿**ومن يتق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيثُ لايحتسب**﴾[1] وقال: ﴿**فقلت استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً * يـرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنّات ويجعل لكم أنهاراً**﴾[2].

فوعدهم بضروب من الخيرات في الدنيا على الأعمال الصالحات.

وقال في بعض من عصاه: ﴿**ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشةً ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى**﴾[3].

وقال في آخرين منهم: ﴿**لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب**

---

(١) الآية: ٢،٣ سورة الطلاق.

(٢) الآية: ١٠ ـ ١٢ سورة نوح.

(٣) الآية: ١٢٤ سورة طه.

الآخرة أخزى﴾[١]، ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أشق ومالهم من الله من واق﴾[٢]»[٣].

وقال تعالى: ﴿إنّ الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[٤].

من هذه الآيات المباركة ومن كثير من آيات كتاب الله سبحانه نستوعب كيفية تأثير الإنسان في التاريخ حسب العرض القرآني.

إذ «وجود الرابطة بين أحوال الإنسان وملكاته، وبين خصوصيّات تركيب بدنه ممّا لاشكّ فيه، فلكلّ من جانبي الربط استدعاء وتأثير خاص في الآخر.

ثمّ النطفة مأخوذة من المادة البدنية، حاملة لما في البدن من الخصوصيات المادية والروحية طبعاً، فمن الجائز أن يرث الأخلاف بعض خصوصيات أخلاق اسلافهم المادية والروحيّة.

وقد تقدّم كراراً في المباحث السابقة ـ أي مباحث كتابه ﷺ ـ أنّ بين صفات الإنسان الروحية وأعماله، وبين الحوادث الخارجية خيراً وشرّاً، كما يشير اليه قوله تعالى: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[٥] وقوله تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم﴾[٦].

فمن الجائز أن يصدر عن فرد من أفراد الإنسان، أو عن مجتمع من المجتمعات الإنسانية عمل من الأعمال صالح، أو طالح، أو تظهر صفة من الصفات

---

(١) الآية: ١٦ سورة فصّلت.

(٢) الآية: ٣٤ سورة الرعد.

(٣) أوائل المقالات في المذاهب والمختارات / الشيخ المفيد ﷺ ط ٢ / ص ١٣١.

(٤) الآية: ١١ سورة الرعد.

(٥) الآية: ٩٦ سورة الاعراف.

(٦) الآية: ٣٠ سورة الشورى.

فضيلة أو رذيلة ثمّ يظهر أثره الجميل، ووباله في أعقابه»[1].

كما أنّنا لاننكر الثقل الآخر في الميزان وهو وجود عوامل ومؤثّرات كثيرة أُخرى لانحيط بها بل اللهُ من ورائها محيط.

وهو بميزانه الدقيق يعفو ويصفح ويعاقب ويزيد وينقص وتأتي النتائج تبعاً للمقدّمات بما شاء واختار.

﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير﴾[2].

* * *

---

(١) الميزان في تفسير القرآن / العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي / ج١٠ / ص٣٣٢.

(٢) الآية: ١٩ سورة الشورى.

الفصل الأوّل

من كلّ ما تقدّم نستطيع أن نستخلص المعالجات القرآنية للمفردات المكونة للتاريخ المنحصرة في:

أ ـ أسباب الرقي والسعادة الفردية والأمميّة.

ب ـ أسباب الانحطاط والشقاء الفرديّة والأمميّة.

وسنحاول استعراضها في الأوراق التالية إن شاء الله تعالى.

وهو مؤدى قوله تعالى:

﴿أم حسب الّذين اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالّذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون﴾[1].

يرتكز البحث على عناصر مهمّة فلنسمّها بعناصر التاريخ، ونقصد بها هنا:

عناصر الصورة التاريخية القابلة للتأثّر والتأثير والتغيّر والتغيير كمّا وكيفاً:

العنصر الأول: المثل الذي تتبنّاه المسيرة

وبما تحتويه المسيرة من مفردات بشرية وطاقات فردية وجماعيّة.

❋ ❋ ❋

---

(١) الآية: ٢١ سورة الجاثية.

العنصر الثاني: الوعي الفردي والجماعي

بما انّه الركيزة الأساسيّة لتلك المسيرة وإن كان من مفرداتها... إذ يختلف هذا باختلاف استيعاب المثل، وبمقدار التطبيق يحصل التفاوت، ولذا جعلناه عنصراً مستقلاً مقابل الأوّل.

العنصر الثالث: الواقع الطبيعي لتغيير الحياة، وصناعة غد أفضل، أو أتعس حسب ما يقتضيه سير المجتمع.

وإذا ما صار التفاعل بينها يحدث التغيّر الكمّي والكيفي، سواء كان إيجابياً أو سلبياً.

وإذا دققنا أكثر نشاهد أنّ العنصر الثالث هو ثمرة معينة من ثمار العنصرين الآخرين كما هو واضح من خلال الآية المباركة:

﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[1].

ونقول على وجه الدقّة أكثر أنّ العنصر الثاني مندك في الأوّل، وهو جزء منه، ومنبثق عنه كما رأينا أخيراً إذ قال تعالى: **﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا﴾** فجعل الميزان لإظهار البركات هو الايمان والتقوى نفسيهما ولا شيء آخر سواهما...

ومن هنا نستطيع أن نجزم بأنّ العنصر الأساس في عملية التغيير كلّه هو العنصر الأوّل.

ولكن من الإنصاف القول لعلّ تنكير البركات جاء لأجل تفاوتها في النزول بحسب مقدار الإيمان المقابل والتقوى.

---

(١) الآية: ٩٦ سورة الاعراف.

وإن كان سبحانه يعطي الإنسان «وهـو المـادة الأولى»، الأرض «وهـي المادة الثانية»، والمناخ «وهو المادة الثالثة»، ويرسل لهم مبشرين ومنذرين لكي يشاهده كيف يسلك... وماذا يتبنّى من المُثُل «وهو المادة الرابعة» المـؤثرة فـي التغيير، فحينئذٍ تكون المواد مقدّمات لابدّ منها.

وليس عن كلّ ذلك نتحدّث، بل عن التغيّر وعن تأثير المادة الأساسيّة وإن هي إلاّ الأخيرة منها في تلك العملية المعقدد من التغيّر المستمر للبشرية بأي اتجاه سارت.

من بعد هذا كلّه آنَ لنا أن نسأل:

ماهي الأشياء التي تتدخل في تغيير التاريخ؟!

والجواب عن هذا يظهر ولو إجمالاً ممّا قدمناه:

١ـ الإنسان نفسه: موضوع البحث بما يملك من الهدايـة الداخـلية وهـي العقل، وبما يملك من شهوات وغرائز.

ومن هذا كلّه قلنا: إنّ العوامل التي تتدخل في تغيير التاريخ هي الإنسان نفسه وقد ذكرناه أولاً...

٢ـ الخير المتمثل بالهداية الخارجية التي تكفّل الله سبحانه بها:

﴿فمن تبع هداي...﴾[1].

والتي ركيزتها الانبياء والمرسلون والعلماء.

والتي هي التي تحفّز العقل على الإبداع والتطوّر، كما أنّها تـقوم بـتقويمه وتثبيته...

---

(١) الآية: ٣٨ سورة البقرة.

قال تعالى: ﴿فمن تبع هداي فلايضلّ ولا يشقى﴾[(١)].

٣ـ الشرّ المتمثل بإبليس نفسه بما يحرّك به الشهوات والغرائز.

٤ـ جنود إبليس وشياطينه من الجنّ والإنس، وهذان العاملان الأخيران هما اللذان يدفعان الإنسان نحو الهدف السراب، فبعد أن يهيّيء جنود إبليس وشياطينه ما يهيّئان، يحرّك إبليس شهواته وغرائزه.

وإن كان قسم من الرابع يدخل في الثالث، والآخر يدخل في الأوّل.

ولكن أفردناها للتنبيه على كلّ واحد تركيزاً، ولذا سوف لانجعلهما بعد ذلك قائمين بذاتيهما ونغضّ الطرف عنهما.

وأما الشيء الأخير فهو راجع الى طبيعة الإنسان، فهو لايمكن أن يوجد بلاه، لأنّه متحيز ويحتاج الى مقومات عديدة لاستمراريته في الحياة ولذا أصبح هناك:

٥ـ الميدان الذي يدور به الصراع أعني الطبيعة:

والطبيعة بما هي لاتقف حجر عثرة في سبيل تقدّم الإنسان وسعادته إطلاقاً... إذ أنّ الإنسان نتيجة للمثل التي يتبناها سوف تكون له أو تكون عليه.

ومن خلال هذه كلها تبقى الحركة النهائية له سبحانه وتعالى.

وتختلف أسلحة الصراع، لا الصراع نفسه بحسب المجتمع نفسه، أي الطبيعة مضافاً الى ما يؤثّر فيها من مؤثّرات منبثقة من الإنسان نفسه.

وهذا واضح جليّ في تاريخ الأنبياء ـ على نبيّنا وآله عليهم السلام ـ أنفسهم؛ ولذا نشاهد أنّ معاجزهم تختلف من واحد لآخر...

وبعد التمعّن أكثر نرى أنّ العامل الأوّل (العامل الثاني مجرّداً أو العامل

---

(١) الآية: ١٢٣ سورة طه.

الثالث مجرّداً) يتولّد منهما المثل الذي تتبناه المسيرة البشرية بما تحتويه من مفردات وطاقات فردية وجماعية.

العامل الأوّل (الإنسان) + (نسبة قليلة أو كبيرة من الإتصال بالناتج الأوّل أو الثاني من المعادلة الأولى) يتولد الوعي الفردي أو الجماعي.

وهذان هما الركيزة الأساسية للمسيرة البشرية.

فكلّما كان الإتصال أكبر كان التغيير أعمق، وبالعكس.

فبمقدار إيمان الإنسان بالمثل الأعلى يرتفع ويسمو.

وبمقدار إيمانه بمُثُلِ السوء يكون الهبوط وسوء المصير.

﴿إنّ الله لايغيّر ما بقومٍ حتّى يغيّروا ما بأنفسهم﴾[1].

* * *

---

(١) الآية: ١٣ سورة الرعد.

الفصل الثاني

هناك حيثيتان يمكن أن يسلّط الضوء من خلالهما على استعراض كتاب الله الكريم لسُنن التاريخ:

١ـ الحيثيّة الأولى:

من حيث المجموع والافراد.

فالقسم الأول من هذه هو الجانب الفردي.

والآخر منهما هو الجانب المجموعي أي جانب المجتمع ككل.

فلكُلّ قسم سنن خاصة به كما سنشير الى ذلك.

٢ـ الحيثية الثانية:

فهي من حيث التأثير لعمل ما إيجابياً أم سلبياً سواء كان على فرد أم على أمة وهذه النتيجة والتأثير لذلك العمل كلاهما كان نتيجة ذلك المصداق الخاصّ ليس إلاّ...

ولا كلام لنا فيه الآن، إن لم يوجد من قِبَلِ مَن يعلم الأسرار علمٌ يفيد بعموم تأثيره بحسبه.

وامّا القسم الثاني:

فهو التأثير على الفرد أو الأمة مع كون هذا التأثير سُنّة ثابتة لايمكن التخلّص منها.

وكما سنرى أنّ الحيثيتين موجودتان في كثير من المصاديق القرآنية.

مع أنّ كليهما قد يجتمع في مصداق واحد في أغلب الأحيان، ولذا سنستعرض الكلام حول الحيثية الثانية ونشير من خلال ذلك إلى الحيثية الأولى لكي لايحدث تكرار قد يكون مُملاً للبعض.

القسم الأوّل:

التأثير الخاص على بعض أعمال:

أ ـ الفرد:

مثاله: قال تعالى: **﴿أو كالّذي مرّ على قريةٍ وهي خاويةٌ على عروشها قال أنّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عامٍ ثمّ بعثه﴾**[١].

فسؤال ذلك المار أوجب له هذا الممات الذي استمرّ مائة عام ثمّ بعثه لكي تتضح وتتجلّى له الصورة واضحة ويستقر إيمانه تماماً.

ب ـ المجتمع:

قال تعالى: **﴿فبظلم من الّذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أحلّت لهم وبصدّهم عن سبيل الله كثيراً * وأخذِهم الرّبوا وقد نُهُوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليماً﴾**[٢].

فكما يظهر من الآية المباركة أنّ تحريم بعض الطيبات لم يكن لشيء إلاّ لظلمهم وأعمالهم وهذا تأثير خاصٌ بذاك الفرد وبهذا المجتمع لم يُشعر بأنّ ذلك سُنّة ثابتة، إلاّ أنّها من مقتضيات ومعاليل أُمور سبقت في الحياة فكانت النتيجة

---

(١) الآية: ٢٥٩ سورة البقرة.

(٢) الآية: ١٦٠ ـ ١٦١ سورة النساء.

واضحة وجليّة كما بيّنها القرآن الكريم.

وكأنّنا لو تتبعنا موارد القرآن الكريم وما جاء عن أهل بيت العصمة لرأينا أن الله سبحانه قسّم العقوبات والثواب الى درجات كثيرة يمكن حصرها بما يلي.

أ ـ قسم العقوبات:

قد قسّمت إلى:

١ـ العقوبة الأخروية:

وهذه واضحةٌ لكلّ أحد منّا فالنار مثوى المتكبرين ونتيجة الظالمين.

﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال * في سمومٍ وحميم * وظلّ من يحموم * لا بارد ولا كريم...﴾[١].

قال الشيخ المفيد ﷺ: «وأمّا النار فهي دار من جهل سبحانه وقد يدخلها بعض من عرفه بمصعية الله تعالى غير أنّه لايخلد فيها..»[٢].

٢ـ العقوبة الدنيوية الخاصة:

وهذه تكون تارةً بإقامة الحدود لمن وجب في حقّه حدٌّ من حدود الله تعالى ترتّب على ذنب قد ارتكبه، كجلد الزاني مثلاً.

﴿الزانية والزّاني فاجلدوا كلّ واحدٍ منهما مائة جلدة﴾[٣].

أو كقطع يد السارق:

---

(١) الآيات: ٤١ ـ ٤٤ سورة الواقعة.

(٢) شرح عقائد الصدوق، في الجنة والنار: ص٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٣) الآية: ١ سورة النور.

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾[١].

ومن شاء التفصيل فعليه بكتب الفقه وبكتاب الحدود خاصّة.

وقد تكون بالقصاص:

﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب﴾[٢].

﴿إنّ النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسنّ بالسنّ﴾[٣].

وهذه تُفصّلها أيضاً كتب الفقه في كتاب الحدود والديّات.

بل تشتد العقوبة في أحيان كثيرة باشتداد الذنب وهذه تتفاوت من دفع كفارة معيّنةٍ على أثر ترك واجب مُعيّن فتخرج أمواله بمحض إرادتِهِ منه عقوبةً الى عقوبةٍ شديدة بجرمٍ شديد فيصبح به مباح الدم قال تعالى في صفة المؤمنين. «ولا يقتلون النفس التي حرّم اللهُ إلا بالحقّ»..

٣ـ عقوبة دنيوية معنوية:

وهي نتيجة بعض الامور التي ترتكبَ من قبل بعضهم... مثل عدم قبول الشهادة... وعدم صلاحية الشخص لامورٍ يرتكبها لإمامة المسلمين في صلوات الجماعة.

٤ـ العقوبة الوضعية المرتبطة بالسنن:

ونقصد بها نتائج الأعمال من حيث الإرتباط العام والخاص وتتضح صوره بما يلي:

---

(١) الآية: ٣٨ سورة المائدة.

(٢) الآية: ١٧٩ سورة البقرة.

(٣) الآية: ٤٥ سورة المائدة.

قال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم...﴾[(١)].

وقال أمير المؤمنين ﷺ: «إنّ الله يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات ليتوبَ تائب، ويقلع مقلِع ويتذكّر متذكّر، ويزدجر مزدجر...»[(٢)].

قال الشيخ المفيد ﷺ: «لهذا قلت: إنّ ايلام الكافر لايستحق عليه عوضاً لأنّه لايقع الاّ عقاباً له، واستصلاحاً في نفسه، وإن جاز أن يصلح به غيره...»[(٣)].

«وَمَنْ يرد أن يضلهُ يجعلْ صدره ضيّقاً حَرَجاً» يعني: ومن يرد أن يضلّه عن ثوابه وكرامته يجعل صدره في كفره ضيّقاً حرجاً. (عقوبةً له على ترك الايمان من غير أن يكون سبحانهُ مانعاً له عن الايمان وسالباً إيّاه القدرة عليه، بل ربما يكون ذلك سبباً داعياً له الى الايمان فإنّ من ضاقَ صدره بالشيء كان ذلك داعياً له الى تركه)[(٤)].

«وكذلك يجعل الله الرجس على الذين لايؤمنون».

بيّن (أن الإضلال المذكور في الآية كان على وجه العقوبة على الكفر، ولو كان المراد به الإجبار على الكفر لقال: كذلك لايؤمن من جعل الله الرجل على قلبه؛ ووجه التشبيه في قوله «كذلك يجعل الله الرجس» أنّه يجعل الرجس على هؤلاء كما يجعل ضيق الصدر في قلوب اولئك، وإنّ كلّ ذلك على وجه الاستحقاق»[(٥)].

---

(١) الآية: ٣٩ سورة الشورى.

(٢) نهج البلاغة / شرح محمّد عبده / ص٢٧٩.

(٣) أوائل المقالات، الشيخ المفيد ﷺ القول في الألم للمصلحة دون عوض، ص١٢٩.

(٤) مجمع البيان للطبرسي / ج٤ / ص١٥٧.

(٥) ص١٥٩ / المجلد الثاني / ج٤.

ب ـ قسم الثواب والإحسان:

وقد قُسّم إلى:

١ـ الثواب الأخروي:

وهو واضح لكل أحد منّا وضوحاً لا غبار عليه.

﴿والسابقون السابقون * أُولئك المقرّبون * في جنات النعيم...﴾(١).

﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين * في سدرٍ مخضودٍ وطلحٍ منضود... وفاكهةٍ كثيرة...﴾(٢).

قال الشيخ المفيد ﷺ: «الجنة دار النعيم لايلحق من دخلها نصب ولايلحقهم فيها لغوب، وجعلها الله سبحانه داراً لمن عرفه وعَبده دائم لا انقطاع له»(٣).

٢ـ الثواب الدنيوي والكرامة:

فله أن يكون إمام جماعة مثلاً، وله أن يشهد، أو أن يكون حاكماً...

فحقوقه محفوظة ونفسه وعرضه وماله مصون...

٣ـ الثواب الوضعي المرتبط بالسنن:

قال تعالى: **﴿فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة...﴾**(٤).

---

(١) الآية: ٩ ـ ١١ سورة الواقعة.

(٢) الآية: ٢٦ ـ ٣١ سورة الواقعة.

(٣) شرح عقائد الصدوق في الجنة والنار: ص٢٢٩ ـ ٢٣٠.

(٤) الآية: ١٤٨ سورة آل عمران.

قال السيد الطباطبائي ﵀ في ميزانه بعد ذكر قصة يوسف ﵇ وتمكينه في الأرض «وقوله: ولانضيع أجر المحسنين»[١] إشارة الى أنّ هذا التمكين أجرٌ اوتيه يوسف ﵇، ووعدٌ جميل للمحسنين جميعاً أنّ الله لايضيع أجرهم، وأنّ قوله تعالى: ﴿ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتّقون﴾ لأولياء الله من عباده فهو وعدٌ أخروي لأوليائه تعالى خاصة، وكان يوسف ﵇ منهم...»[٢].

قال الشيخ المفيد ﵀:

«وأقول إنّ النصر من عند الله تعالى يكون على ضربين: أحدهما إقامة الحجة وإيضاح البرهان على قول المحق، فذلك أوكد الألطاف في الدعاء الى اتباع المحق وهو النصر الحقيقي.

قال الله تعالى: ﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾[٣].

وقال جلّ اسمه: ﴿كتب الله لاغلبنّ أنا ورسلي إنّ الله قوي عزيز﴾[٤].

ثمّ أضاف ﵀ قائلاً:

«والضرب الثاني تثبيت نفوس المؤمنين في الحروب وعند لقاء الخصوم، وإنزال السكينة عليهم، وتوهين أمر أعدائهم، والقاء الرعب في قلوبهم وإلزام الخوف والجزع أنفسهم.

ومنه الإمداد بالملائكة وغيرهم من الناصرين بما يبعثه إليهم من ألطافه

---

(١) الآية: ٥٦ سورة يوسف.

(٢) الميزان / السيد الطباطبائي / ج١١ / ص٢٠٢ / مؤسسة مطبوعاتي ١٤١٢ هـ. ق.

(٣) الآية: ٥١ سورة المؤمن.

(٤) الآية: ٢١ سورة المجادلة.

وأسباب توفيقاته على ما اقتضته العقول ودلّ عليه الكتاب المسطور.

والخذلان أيضاً على ضربين: كل واحد منهما نقيض ضدّه من النصر وخلافه في الحكمة.

وهذا مذهب أهل العدل كافة من الشيعة...»[1].

من هنا يظهر لنا أنّ تقدّم الإنسان وانتكاسه مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما يعتقده وما يصدر منه من أفعال ونيّات.

قال الشيخ المفيد ﷺ:

«قوله تعالى: ﴿وما يعمّر من معمر ولاينقص من عمره الاّ في كتاب﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض﴾[3].

فتبيّن أنّ آجالهم كانت مشترطة في الامتداد بالبرّ، والانقطاع بالفسوق.

وقال تعالى: فيما أخبر عن نوح ﷺ في خطابه لقومه:

﴿استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يُرسلِ السماء عليكم مدراراً...﴾ الى آخر الآيات (سورة نوح آية ١١ وما بعدها).

فاشترط لهم في مدّ الأجل وسبوغ النعم الاستغفار؛ فلمّا لم يفعلوه قطع آجالهم، وبتر أعمارهم، واستأصلهم بالعذاب...»[4].

«وكان يقال لصعصعة ـ جد الفرزدق ـ محيي الموؤدات.

---

(١) أوائل المقالات / الشيخ المفيد / ص١٣٢.

(٢) الآية: ١١ سورة الملائكة.

(٣) الآية: ٩٦ سورة الأعراف.

(٤) شرح عقائد الصدوق الحديث في البداء / ص٢٠٠.

وقد قال قدمت على النبي ﷺ فعرض عليّ الإسلام فأسلمت وعلّمني آيات من القرآن فقلت: يا رسول الله إنّي عملت أعمالاً في الجاهلية هل فيها من أجر؟!

ثمّ ذكر حديث فداء الموؤدات فقال له النبي ﷺ هذا بابٌ من البرّ ولك أجره إذ منّ الله عليك بالإسلام»[١].

❊ ❊ ❊

(١) كتاب الاغاني / ج٢١ / ص٢٩٩.

الخاتمة:

مِن بعد هذا كلّه نحاول التركيز على جملةٍ من السنن التاريخية الفردية والجماعية والتي تعرّض لبعضها بعض العلماء أمثال الشيخ المفيد ﷺ في النصر والخذلان وثواب الدنيا وعقابها وتعجيل المجازاة فيها كما صرّح بذلك على ما نقلنا عنه في مطاوي كلماتِنا السابقة...

أوّلاً: ويمكن تسليط الضوء على النقاط التالية لبيان بعض العقوبات الدنيوية على أثر الأعمال السلبية للانسان ـ وَقَد مرّ علينا من ص ٦٢ ـ ص ٦٥.

١ـ الكسب.

٢ـ الانسلاخ عن آيات الله.

٣ـ الظلم ﴿وما كنّا مهلكي القرى إلاّ وأهلها ظالِمون﴾[١].

٤ـ القعود مع القوم الظالمين.

٥ـ الإبتعاد عن ذكر الله تعالى.

٦ـ الإفك والإثم.

ثانياً: بعض الثواب الدنيوي على أثر الأعمال الصالحة للإنسان.

١ـ ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من

---

(١) الآية: ٥٩ سورة القصص.

السماء والأرض﴾[١].

٢ـ ﴿وجعلنا منهم أئمّة يهدون بأمرنا لمّا صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾[٢].

فالإمامة جاءتهم نتيجة لصبرهم.

٣ـ «وقال تعالى فيما أخبر عن نوح عليه السلام في خطابه لقومه:

﴿استغفروا ربّكم إنّه كان غفّاراً يُرسل السّماء عليكم مدراراً..﴾[٣].

فاشترط لهم في مدّ الأجل وسبوغ النعم الاستغفار...»[٤].

«وقد جعل الله الإستغفار سبباً لدرور الرزق رحمةً للخلق فقال:

﴿استغرفوا ربّكم إنّه كان غفّاراً يُرسل السّماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال وبنين﴾[٥]»[٦].

وحكى عنه أبو جعفر محمّد بن علي الباقر عليهما السلام أنّه قال:

كان في الأرض أمانان من عذاب الله وقد رفع أحدهما، فدونكم الآخر فتمسّكوا به أمّا الأمان الذي رفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وأمّا الأمان الثاني الباقي فالاستغفار، قال الله تعالى:

﴿وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون﴾[٧]»[٨].

---

(١) الآية: ٩٦ سورة الاعراف.

(٢) الآية: ٢٤ سورة السجدة.

(٣) الآية: ١٠ سورة نوح.

(٤) شرح عقائد الصدوق رحمه الله / الحديث في البداء / ٢٠٠.

(٥) الآية: ١٠ سورة نوح.

(٦) نهج البلاغة / شرح الشيخ محمّد عبده / ص٢٧٩.

(٧) الآية: ٣٣ سورة الانفال.

(٨) نهج البلاغة / ج٢ / ص١٦١.

ونرى أنّ دعوة هود تدور نفس المدار ففي سورة هود وفي الآية / ٥٣ يظهر الله تعالى كلامه فنراه يقول لهم:

﴿ويا قوم استغفروا ربّكم ثمّ توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدراراً ويزدكم قوة الى قوّتكم...﴾[١].

٤ـ قال تعالى:

﴿وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظنّ أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله الاّ أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين فاستجبنا له ونجّيناه من الغم وكذلك ننجّي المؤمنين﴾[٢].

فذكر الله سبحانه الى ندائه لنبيّه عدم انقطاع نبيّه عن الاتصال به بعد إبتلائه بل إزداد دعاؤه وتوسله ثم توضيح ما قال ليعلّمنا ما نقول عند البلاء ويؤكّد هذا ذكره سبحانه في نهاية الآية: ﴿وكذلك ننجّي المؤمنين﴾.

وفي آية أخرى كان الظهور أجلى: ﴿فلولا إنّهُ كان المسبحين للبث في بطنه الى يوم يبعثون﴾[٣].

إذ بيّن أنّ سبب إنقاذه تسبيحه....

٥ـ قال عليّ عليه السلام:

---

(١) الآية: ٥٣ سورة هود.

(٢) الآية: ٨٧ سورة الأنبياء.

(٣) الآية: ١٤٣ الصافات.

«من أصلح بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس، ومن أصلح أمر آخرته أصلح الله له أمر دنياه، ومن كان له من نفسه واعظ كان عليه من الله حافظ»(١).

«حجُّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر، ويدحضان الذنب، صلة الرحم فإنّها مثراة في المال، ومنساة في الأجل، وصدقة السرّ فإنّها تكفّر الخطيئة.

وصدقة العلانية فإنها تدفع ميتة السوء وصنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان»(٢).

وفي أمالي الشيخ ﵀ بسنده عن عبدالوهاب بن محمّد بن ابراهيم عن أبيه قال: بعث أبو جعفر المنصور الى أبي عبدالله جعفر بن محمد ﵇ وأمر بفرش فطرحت الى جانبه فأجلسهُ عليها، ثمّ قال: عليّ بمحمّد، عليّ بالمهدي يقول ذلك مراراً فقيل له الساعة الساعة يأتي يا أمير المؤمنين ما يحبسه الاّ أنّه يتبخر فما لبث ان وافى وقد سبقته رائحته، فأقبل المنصور على جعفر ﵇ فقال يا أبا عبدالله حديث حدثتنيه في صلة الرحم اذكره يسمعه المهدي قال: نعم حدثني أبي عن أبيه عن جده علي ﵇ قال: قال رسول الله ﷺ: إن الرجل ليَصِل رحمه وقد بقي من عمره ثلاث سنين فيصيرهما الله عزّوجلّ ثلاثين سنة، ويقطعها وقد بقي من عمره ثلاثون سنة فيصريها الله عزّوجلّ ثلاث سنين قال ثم تلا ﵇: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب﴾ قال هذا حسن يا أبا عبدالله وليس إيّاه اردت قال أبو عبدالله﵇، نعم حدثني أبي عن أبيه عن جده علي ﵇ قال: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) نهج البلاغة: ج٢ ص١٦١.

(٢) نهج البلاغة / خطبته ﵇ في أركان الدين التي أولها: «أفضل ما توسّل به المتوسلون..».

«صلة الرحم تعمر الديار وتزيد في الأعمار وإن كان أهلها غير اخيار«. قال هذا حسن يا أبا عبدالله وليس هذا اردت. قال أبو عبدالله نعم حدثني أبي عن أبيه عن جده علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «صلة الرحم تـهوّن الحسـاب، وتـقي مصارع السوء» قال المنصور: نعم هذا أردت.

«فأمّا ما تعلّقوا به ـ الضمير راجع الى المجبرة لأنّ حديثه هذا كان في الردّ على بعض معتقداتهم ـ من قوله تعالى: ﴿**فمن يرد الله أن يهديه يشـرح صـدره للإسلام ومن يرد أن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً**﴾[1].

فليس للمجبرة به تعلّق ولا فيه حجة من قبل أنّ المعنى فيه أنه من أراد الله تعالى أن ينعمه ويثيبه جزاءاً على طاعته شرح صدره للإسـلام بـالألطاف التـي يحبوه بها فييسر بها استدامة أعمال الطاعات، والهداية في هذا الموضع هي النعيم.

قال الله تعالى ـ فيما أخبر به عن أهل الجنة ـ : ﴿**الحمد لله الذي هـدانـا لهذا**﴾[2]. أي نعمنا به وأثابنا به.

والضلال في هذه الآية هو العذاب قال الله تعالى:

﴿**إنّ المجرمين في ضلالٍ وسُعُر**﴾[3].

فسمّى العذاب ضلالاً والنعيم هداية...

والأصل في ذلك أنّ الضلال هو الهلاك والهداية هي النجاة.

---

(١) الآية: ٢٥ سورة الأنعام.

(٢) الآية: ٤٣ سورة الاعراف.

(٣) الآية: ٤٧ سورة القمر.

قال الله تعالى حكاية عن العرب: ﴿إذا ضللنا ءإنّا لفي خلق جديد﴾[١].

يعنون إذا هلكنا فيها.

وكان المعنى في قوله: ﴿فمن يرد أن يهديه﴾ و﴿من يرد أن يضله﴾ ما وصفناه.

والمعنى في قوله: ﴿يجعل صدره ضيّقاً حرجاً﴾

يريد سلبه التوفيق عقوبة له على عصيانه ومنعه الألطاف جزاءاً له على إساءته.

فشرح الصدر ثواب الطاعة بالتوفيق. وتضييقه عقاب المعصية بمنع التوفيق...»[٢].

والحمد لله على ما وفّقنا وله المنّة

قم المقدّسة

محمّد حسين الأنصاري

* * *

---

(١) الآية: ١١ سورة السجدة.

(٢) شرح عقائد الصدوق ﷺ للشيخ المفيد ﷺ / ص١٩٢.

مصادر الكتاب

القرآن الكريم
أوائل المقالات للشيخ المفيد
سنن الدارمي
نهج البلاغة تعليق شيخ محمد عبده
البيان في تفسير القرآن للإمام الخوئي
التوحيد للشيخ الصدوق
شرح عقائد الصدوق للشيخ المفيد
الميزان في تفسير القرآن للسيد الطباطبائي
الشهرستاني في مجلة المرشد
محاضرات السيد في النجف الأشرف
كتاب العصمة لمؤلف هذا الكتاب
الكافي للشيخ الكليني
دلائل الصدق للشيخ محمد حسن المظفر
مفاتيح الغيب للفخر الرازي
مجمع البيان للشيخ الطبرسي
نوادر الأخبار للفيض الكاشاني
محاضرات الشهيد الصدر
سفينة البحار للشيخ عباس القمي
تحف العقول عن آل الرسول





فهرس مواضيع الكتاب

الفهرس

آثار المؤلف ٦
تصدير الكتاب بقلم سماحة الشيخ علي الكوراني ٩
مقدمة المؤلف ١٥
كلمة المؤلف ٢٣
هل للتاريخ سنة ثابتة ٣٣
المسلك الأول ٣٥
الخطوط العامة المشتركة التي سار عليها الإنسان ٣٧
الأساس الأول ـ التوحيد ٤٦
الأساس الثاني ـ العدل ٤٩
الأساس الثالث ـ النبوة ٥٣
الوجه الأول منها ٥٩
الوجه الثاني ٥٩
الوجه الثالث ٦٠
الأساس الرابع ـ الإمامة ٦٠
إتضح لنا الخامس ـ القيامة ٦٩
المحور الأول: وهو المحور الحقيقي المثل الأعلى ٧٠

الخاتمة ١٢٧

المحور الثاني ـ المثل السفلى ٧٢
فئات مجتمع مثل السوء ٧٤
والطبقة الاولى ٧٧
الطبقة الثانية ٧٧
الطبقة الثالثة ٧٧
أساليب دعوة الشيطان ٧٩
طرق مجيء الشيطان وسيطرته ٨١
الإنسلاخ عن آيات الله ٨٢
الظلم ٨٢
القعود مع الظالمين ٨٢
الابتعاد عن ذكر الله ٨٣
أساليب بناء القوّة الرادعة ٨٥
طرق الوقاية ٨٨
الفرق بين المثل الأعلى ومثل السوء ٩٠
الهدف الاضطراري المشترك ٩٣
المسلك الثاني ٩٥
نتائج السير وثمراته ٩٧
تمهيد ٩٩
الفصل الأول ١٠٢
العنصر الثاني ١٠٣
العنصر الثالث ١٠٣

الخير المتمثل بالهداية ١٠٤
الفصل الثاني ١٠٧
الحيثيّة الأولى ١٠٧
الحيثية الثانية ١٠٧
القسم الأول ١٠٨
قسم العقوبات ١٠٩
قسم الثواب والإحسان ١١٢
الخاتمة ١١٦
مصادر الكتاب ١٢٣
فهرست مواضيع الكتاب ١٢٦